﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس: 33 - 42]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

التذكيرُ بالنّعَمِ الوَفيرة يستلزمُ التخويفَ من العاقبةِ الوَخيمة

لمّا عدَّدَ المولى تعالى آلاءَه على عباده، وذكَّرهم بإحسانِه إليهم؛ ناسبَ أن يعقّبَ هذا بتفصيلِ بعضِ أحوالِ يوم القيامة، وأهوالِها التي توجِبُ الفزعَ والخوفَ منه؛ ليدعوَهم ذلك إلى التأمُّلِ فيما مضى من الدَّلائل الَّتي تُرشِدُ إلى وحدانيّته وقُدرته، وصحّةِ البعث، وأخبارِ يوم القيامة الَّتي جاءت على ألسنةِ رُسُلِه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾: (صخّ) أصلٌ يدلُّ على صوتٍ منَ الأصوات، من ذلك (الصاخّة)، يقال: إنّها الصَّيحةُ تصمُّ الآذان، ويقالُ: ضربتُ الصَّخرةَ بحجرٍ فسمعتُ لها صَخّا[2]، قالَ اللَّيث: الصاخَّةُ صيحةٌ تَصُخُّ الآذانَ فتُصِمُّها، وأصلُ الصخِّ في اللُّغة: الطّعنُ والصكُّ، قال المبرِّد: صخَّ رأسَهُ بحجَرٍ، أي: شدخَهُ، فمعنى الصّاخّة: الصّاكّةُ لشدّةِ صوتِها، وأصلُهُ مِن صخَّ يصُخُّ فهو صاخٌّ، أي صاحَ صياحاً مُقطِّعًا يقطَعُ قلبَ سامعِهِ[3]؛ فهو الصّوتُ الشّديد الّذي يُؤثِّرُ في الأذن والقلب[4]. والمراد به في الآية: صيحةُ القيامة، وهي النّفخةُ الأخيرة.

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 117.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صخ).
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 237.
(4) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 6/ 206.

2) ﴿يَفِرُّ﴾: (فرّ) أصولٌ ثلاثة: الأوّلُ الانكشافُ وما يُقارِبُهُ منَ الكشفِ عنِ الشّيء، والثاني جنسٌ من الحيوان، والثالث دالٌّ على خفّةٍ وطَيْشٍ[1]. وفرَّ من عدوِّهِ يَفِرُّ من بابِ (ضَرَبَ) فِراراً: هرَبَ، وفرَّ إلى الشّيء: ذهبَ إليه[2]، فهو الحركةُ السّريعةُ مُدبِراً للتخلُّصِ عنِ ابتلاءٍ أوْ لانكشافِ ابتلاء[3]. والمرادُ به في الآية: عدمُ الالتفاتِ إلى واحدٍ مِن أقاربِهِ؛ لعِظَمِ ما هو فيه[4].

3) ﴿شَأْنٌ﴾: (شأن) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على ابتغاءٍ وطَلَب، من ذلك قولُ العرب: شأَنْتُ شأنَهُ أي قصدْتُ قصدَهُ[5]، والشَّأنُ: الخَطْبُ، والجمعُ: الشُّؤونُ[6]، والشأنُ: الأمرُ والحالُ، يقالُ: لأشأَنَنّ شأنَهُم أي لأفسِدَنَّ أمرَهُم[7]. والمرادُ به في الآية: الحالُ والأمرُ المُهِمُّ.

4) ﴿يُغْنِيهِ﴾: (غني) أصلانِ صَحيحان؛ أحدُهُما يدلُّ على الكفاية، والآخرُ صوتٌ؛ فالأوّلُ الغِنَى في المال، يقالُ غَنيَ يَغنَى غِنىً، والغَناءُ الكِفاية، يقال: لا يُغني فلانٌ غَناءَ فُلانٍ، أي لا يَكفي كِفايتَهُ[8]، ويُغنيهِ يُشغِلُه، قالَ ابنُ قتيبة: يُغنيهِ: يَصرِفُه ويَصدُّهُ، ويقال: اغنِ عنّي وجهَكَ، أي اصرِفْهُ، وقال أهلُ المَعاني: يُغنيهِ يَكفيكَ عن زيادةٍ عليه من الاهتمامِ لغيره، أي ليسَ فيه فضلٌ لغيرِ ما هو فيهِ من الأمرِ الَّذي قد اكتنفَهُ، فصارَ حالُهُ كحالِ الغنيِّ عن الشّيءِ في أنَّ نفسَهُ لا تنازعُ إليه[9]. والمرادُ بهِ في الآية: يكفيهِ أوْ يُشغِلُهُ أوْ يَصرِفُهُ.

5) ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾: السّفْرُ: (سفر) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الانكشافِ والجَلاء، من ذلك السَّفَرُ، سُمّي بذلك لأنّ الناسَ يَنكشِفونَ عن أماكنِهِم[10]، وسفَرَ الرجلُ سَفَراً من بابِ (ضَرَبَ)، فهو سافِرٌ، والجمعُ سَفْرٌ، وسَفَرتِ الشّمسُ سَفْراً: طَلَعَتْ، وسَفَرتِ المرأةُ سُفورا: كشفَتْ وجهَها، وأسفَرَ الصُّبحُ إسفاراً: أضاءَ، وأسفرَ الوجهُ من ذلك إذا عَلاهُ جمالٌ[11]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرّ).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (فرّ).
(3) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 9/ 47.
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 238.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شأن).
(6) الخليل، العين: (شأن).
(7) الجوهري، الصحاح: (شأن).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(9) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 239.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سفر).
(11) الفيومي، المصباح المنير: (سفر).

والسّفرُ: كشفُ الغِطاء، ويختصّ ذلك بالأعيانِ؛ نحوُ: سفرَ العمامةَ عنِ الرّأس، والإسفارُ يختصُّ باللّون، نحوُ: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ٣٤﴾ [المدثر: 34] أي أشرَقَ لونُهُ، والسِّفر: الكتابُ الّذي يُسفِرُ عن الحقائق. والرّسول والملائكةُ والكُتُب مُشتركةٌ في كونِها سافرةً عن القومِ ما استبهَمَ عليهم[1]. والمُرادُ بهِ في الآية: مُشرِقةٌ مُضيئةٌ مُنكشِفةُ الألوانِ ناضِرة[2].

6) ﴿غَبَرَةٌ﴾: (غبر) أصلانِ صحيحانِ؛ أحدُهما: يدلُّ على البقاءِ، والآخرُ على لونٍ منَ الألوان؛ فالأوّلُ غبَرَ إذا بَقي، والآخَرُ الغُبارُ، سُمّي لغَبرتِه، وهي لونُهُ[3]، وغَبَرَ غُبورًا من بابِ (قَعَدَ)، وقد يُستعمَلُ فيما مَضَى أيضاً، فيكونُ منَ الأضدادِ[4]، والغُبار: ما يَبقى منَ التُّرابِ المُثار، وإنّما قيلَ للماضي غابرٌ تصوُّراً بمُضيِّ الغُبار عنِ الأرض، وقيلَ للباقي غابرٌ تصوُّرًا بتخلُّف الغُبار عن الّذي يعدو فيَخلُفُه، ومن الغُبار اشتُقَّ الغَبَرة، وهو ما يَعلقُ بالشيءِ من الغُبار، وما كانَ على لونِهِ[5]، قالَ المُبرِّد: الغبَرة ما يُصيبُ الإنسان من الغُبارِ المُعفِّر[6]، وهو المرادُ به في الآيةِ أوِ الكنايةُ عن الهمِّ والغمِّ.

7) ﴿قَتَرَةٌ﴾: (قتر) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تجميعٍ وتضييقٍ، يقالُ: قَتَرَ الرّجلُ على أهلِهِ يَقْتِرُ، وأقترَ وقتّرَ، ومن البابِ القَتَر: ما يغشَى الوجهَ من كَرَبٍ، والقتَرُ: الغُبار[7]، والقُتار: الدُّخانُ معنىً ووزناً، وقتَرَ على عيالِهِ قَتْراً وقُتورًا من بابَي (ضرَبَ وقعَدَ): ضيّقَ في النّفَقة، وأقترَ وقتّرَ: مثلُهُ[8]، فالقترُ: تقليلُ النّفقة، وهو بإزاءِ الإسراف، وكلاهُما مَذمومان، ورجلٌ قتورٌ ومُقتِرٌ، وأصلُ ذلك من القُتار وهو الدُّخان السّاطعُ من الشّواء والعودِ ونَحوِهما، فكأنّ المُقترَ والمُقتّر يتناولُ منَ الشّيءِ قُتارَهُ[9]. والمرادُ به في الآية: سوادٌ وكسوفٌ عندَ مُعاينةِ النّار[10].

(1) الراغب، المفردات: (سفر).
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 240.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غبر).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (غبر).
(5) الراغب، المفردات: (غبر).
(6) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 240.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قتر).
(8) الفيومي، المصباح المنير: (قتر).
(9) الراغب، المفردات: (قتر).
(10) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 242.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بالقيامةِ ينقسِمُ الناس إلى أهلِ كـرامـةٍ وأهـلِ خَسارَة

فإذا وقعتِ القيامةُ بصوتِها الهائلِ الّذي يصخُّ الأسماع ويصكُّها بشدّتِه؛ فما أعظمَ أسفَ الكافر، وما أشدَّ ندمَه؛ ومِن هولِ ذلك اليوم يفرُّ كلُّ واحدٍ من الكفار عن أقربائِهِ المُقرَّبين؛ لانشغالِ بعضِهم عن بعضٍ بعواقبِ أعمالِه وتكذيبِهِ، فينقسِمُ الناس يومئذٍ إلى فريقين: فريقٌ ذو وجوهٍ مُتهلِّلة ضاحكةٍ فرحةٍ بما تجدُ من بردِ اليقين، ووجوهٌ أُخرى يَعلوها غبارُ الذُّلِّ، وسوادُ الغمِّ والحُزن والضّيق، وهي وجوهُ الكفّار الذين لم يُؤمنوا باللّه، وبما جاءَ به أنبياؤُهُ، وخرَجوا عن حدودِ شرائعِهِ، واجترحوا السيِّئات، واقترفوا المَعاصيَ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الفاءِ) في ﴿فَإِذَا﴾

الـصّاخّـة جـزاءُ مَن تركَ التذكِرة

عبَّر النظمُ الكريم بـ(الفاءِ) في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾؛ للدِّلالة بها على التفريعِ والترتيب، فهي إمّا مُتفرِّعةٌ على "اللَّوْم والتَّوْبيخ في قَوْلِهِ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ وما تَبِعَهُ مِنَ الاسْتِدْلالِ عَلَى المُشْرِكينَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ إلَى قَوْلِهِ: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾، فَفُرِّعَ عَلَى ذَلِكَ إنْذارٌ بيَوْمِ الجَزاءِ، مَعَ مُناسَبَةِ وُقوعِ هَذا الإنْذارِ عَقِبَ التَّعْريضِ والتَّصْريحِ بالامْتِنانِ في قَوْلِهِ: ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ وقَوْلِهِ: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾"[1].

أوْ عنْ إخبارِ ما قبلَها منَ النِّعَم المَذْكورة؛ فأخبر أوّلًا عمّا هوَ سريعُ الزوال وقريبُ الاضمحلال وقليل الانتفاع - كما يُشعِرُ به التَّعْبيرُ بـ(المتاع) - ؛ ثم أخْبَرَ عمّا هوَ باقٍ[2].

أوْ عن قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أوْ قولِهِ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 134.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 103، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 112.

﴿أَكۡفَرَهُۥ﴾: فعلى الأوّل تقديرُهُ: (إنَّها تذكرةٌ) وعِظتُهُ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ يختلفُ حالُ المُتّعظينَ بها وغيرِ المُتّعظين، وبيانُهُ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ﴾ الآية، ويَحتمِلُ حينئذٍ أنْ يكونَ جزاؤُهُ ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ﴾ الآية، وعلى الثاني تقديرُهُ: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ فإذا جاءَتِ الصّاخّة يَرى جَزاءَ كُفرانِه[1].

والَّذي يترجّحُ أنَّ التفريعَ بمَجيءِ الصّاخة ووُقوعِها يَتناسَبُ مع كونِ القرآن تذكرةً؛ لأنَّ مَن لم يَنتفع بالتذكرةِ معَ لطافتِها فإنَّه سوفَ تصكُّ أذنَيهِ الصّاخّةُ وتُفزِعُهُ بقوَّتِها وشِدَّتِها. وكما أنَّ التذكرةَ يختلفُ حالُ السّامعينَ لها؛ فمِنهمُ المُنتفِعُ ومِنهم غيرُ المُنتفع، كذلك الصّاخّةُ فمِنهم عند وقوعِها المَسرورُ المُستبشِرُ، ومِنهم المهمومُ الفزِعُ، وأنَّ تفرُّعَ الإنذارِ عن الإنذارِ أوْلى مِن تفرُّعِ الإنذارِ على اللّومِ والتّوبيخ، ويترتّبُ على هذا التفريعِ أنْ يكونَ جوابُ شرطِ (إذا) مذكوراً لا محذوفاً، وهو قولُهُ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾... الآية، بخلافِ تفرُّعِها عنِ ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ فإنه يكون محذوفاً يدلُّ عليه الكلام، وتقديرُهُ: (يَرى جزاءَ كُفرانه). بقي أنَّ الهرريّ ذهبَ إلى تجويز كونِها استئنافيةً أوْ فصيحةً بقوله: "ويصِحُّ أنْ تكونَ فصيحةً، تقديرُهُ: (إذا عرفتَ أحوالَهُم في الدُّنيا، وأردتَ بيانَ أحوالِهم في المَعاد فأقولُ لك: إذا جاءَتِ الصّاخّةُ"[2].

دلالةُ (إذا) والغرضُ منها:

عبَّرَ النظمُ الكريم بلفظِ (إذا) في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾؛ للدِّلالة بها على الظّرفِ المُستقبل منَ الزّمان المُتضمِّن لمعنى الشَّرط المُفيدِ لتحقُّقِ الوُقوع، والغرضُ من الدلالةِ الاستقباليَّةِ مع تحقيقِ الوقوعِ لمَجيءِ الصّاخة الإنذارُ والرّدعُ لمَن جاءَتْهُ التذكرةُ ولم يَنتفعْ بها.

الإنـذارُ الـرَّدْع لمَـن أعـرضَ عـنِ الإصـغـاءِ والسّمْع

(1) التفسير المظهري: 10/ 202، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 137.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 145.

جوابُ الشّرط بينَ الذّكرِ والحَذف:

تحديدُ الجواب تركيزٌ على محلّ الخِطاب

لمّا كانتْ (إذا) ظرْفاً مُتضمّناً لمَعنى الشّرط في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ وهو محتاجٌ لجوابِهِ، اختلفَ المفسِّرون في تحديدِهِ نتيجةَ اختلافِهم في تفرّعِ (الفاءِ) عمّا قبلَها، وتحديدِ مَوطنِ الاهتمامِ والتركيزِ في الكلام: فذهبَ الأكثرونَ إلى أنَّ جوابَها محذوفٌ يدلُّ عليه سياقُ النّظم، والتقديرُ: "فإذا صخّتِ الصّاخّةُ شُغِلَ كلُّ إنسانٍ بنفسِهِ"[1]، وانتقدَ القونويّ مَن جعلَ قولَه تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ جواباً له؛ بقوله: "قيل إنَّه جوابُ (إذا) تُركَتِ (الفاءُ) لتقديره مُضارعًا أوْ ماضيًا بدون (قد)، وهو تعسُّفٌ، والظّاهر أنَّ جوابَهُ مَحْذوفٌ يدلُّ عليه هذا القَوْلُ الكريم: أي لشُغِلَ كلُّ نفس بخَلاصِها"[2]. في حينِ ذهبَ ابنُ عاشور إلى أنَّ قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ وما بعدها جوابٌ له، ويقصِدُ أنّه لازمُ الجواب، والتقديرُ: فإذا جاءَتِ الصاخّة اختلفَ حالُ الناس إلى فريقين، قالَ ابنُ عاشور: "وَ(إذا) ظَرْفٌ، وهوَ مُتَعَلِّقٌ بـ ﴿جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ وجَوابُهُ قَوْلُهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾... الآياتِ"[3]، والّذي يترجّحُ لدينا أنَّ الغايةَ من الإنذار بالصّاخّةِ وأهوالِها ليس مجرّدَ الانشغالِ عن الأقارب، وإلّا كان التهويلُ والتخويفُ هو محطَّ الاهتمام، لكنَّ الغايةَ من الإنذار والتخويفِ من يومِ النشر والحساب إعلامُ الأنام، بانقسامِهم إلى مُستبشرينَ برِضوانِ المَلِكِ العلّام، أو كالحينَ ينهالُ عليهم العذابُ الزّؤام.

(1) السمين، الدر المصون: 10/ 696، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 137، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1794.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 105.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 135.

دلالةُ فعلِ (المَجيءِ) مادّةً وصيغةً واستعارةً:

تـشـخـيـصُ المعنويّات لإثباتِ أنَّ الغيبيّات كالحِسّيّات

عبّرَ النظمُ الكريم بفعلِ (المَجيء) ماضياً في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾؛ للدِّلالة على تحقُّقِ الوقوعِ في المستقبل، وأنَّه مقطوعٌ بحصولِهِ، ولذا دخلتْ (إذا) على الفعلِ الماضي الدالِّ على الوقوع والتحقُّق، وليدلَّ بمادّتهِ على الإقبالِ الشَّديد الصّعب، وقد استُعيرَ (المجيء) استعارةً مكنيّةً للدِّلالة على الوقوعِ والحُصول؛ إذ شبَّه يومَ الجزاء المعبَّر عنه بـ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ بشخصٍ جاءَ مِن مكان، ثمَّ حذفَه وأبقى من خواصِّه ولوازمِهِ المجيءَ، وأُسنِدَ إلى ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ تخييلاً، أو استعارةً تصريحيّةً بتشبيهِ الوقوعِ بالمجيءِ بجامعِ التحقُّق في كلٍّ، ثمَّ حذفَ المشبّه وأبقَى المشبّه به على سبيلِ التبعيَّة. قال ابنُ عاشور: "والمَجيءُ مُسْتَعْمَلٌ في الحُصولِ مَجازًا، شُبِّهَ حُصولُ يَوْمِ الجَزاءِ بشَخْصٍ جاءَ مِنْ مَكانٍ آخَرَ"[1]، والغرضُ من الاستعارةِ تأكيدُ تحقُّقِ الوقوعِ من خلال تجسيمِ حالةِ الوقوعِ للغيبيّات بحالةِ المُقبلِ من مَكانٍ كالحسيّات.

نكتةُ التعريفِ بـ(أل) في ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾:

التـحـويـلُ إلى العلَم دالٌّ على الوجهِ الأتَمِّ

عبّر النظمُ الكريم بلفظِ ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ مُعرّفاً بـ(أل) في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾؛ للدِّلالة بها على التعريف؛ لأنَّ أصلَ الصّاخَّة اسمُ فاعلٍ مشتقٌّ للدِّلالة على أمرٍ يُصخُّ الأسماعَ ويُفزِعُها لشدَّة وقعِهِ وصوتِهِ، "قالَ الزَّجّاجُ: أصْلُ الصَّخِّ في اللُّغَةِ: الطَّعْنُ والصَّكُّ، يُقالُ صَخَّ رَأْسَهُ بحَجَرٍ أيْ شَدَخَهُ، والغُرابُ يَصُخُّ بمِنْقارِهِ في دُبُرِ البَعيرِ أيْ يَطْعَنُ، فمَعْنَى الصّاخَّةِ الصّاكَّة بشِدَّةِ صَوْتِها لِلْآذانِ"[2] تَبعجُها وتَثْقُبُها، فيكونُ التعريفُ للعهدِ المُعيَّن، ثمَّ نُقِلَ وصارَ علَماً واسماً من أسماءِ القيامةِ، للدِّلالة بهذا النقلِ على الكمالِ والمُبالغة في ذلك

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 135.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 61.

المَعنى الدالِّ على الشدَّةِ الصوتيَّة والصَّيحةِ الشّديدة، قالَ ابنُ عاشور: "فالصّاخَّةُ صارَتْ في القُرْآنِ عَلَمًا بالغَلَبَةِ عَلَى حادِثَةِ يَوْمِ القيامَةِ وانْتِهاءِ هَذا العالَمِ، وتَحْصُلُ صَيْحاتٌ، مِنْها أصْواتٌ تُزَلْزِلُ الأرْضَ واصْطِدامُ بَعْضِ الكَواكِبِ بالأرْضِ مَثَلًا، ونَفْخَةُ الصّورِ الَّتي تُبْعَثُ عِنْدَها النّاسُ"(1)، أي أُطلِقَت بالتخصيص على النّفخة الثانية للقيامةِ، الَّتي يُنْشَرُ فيها العبادُ ويُبعَثونَ، قالَ القونوي: "ولظُهورها ممّا بعدَهُ لم يُقيِّدْها"(2)، إذِ الفرارُ من الأقاربِ وانقسامُ الناسِ إلى نوعين قرينةٌ على أنَّها النفخةُ الثانية التي يُنشَرُ فيها الخلائقُ.

التعبير بـ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ بين الحقيقةِ والمَجاز:

مِـــن شـــدّةِ الصاخَّة وقوّتِها أنَّـهـا تستمعُ لنفسِها

عبّر النظمُ الكريمُ بلفظِ ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ اسمَ فاعلٍ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ مُحتمِلاً الدلالةَ على الحقيقةِ الإسناديّة أوِ المجازِ العقليّ، وذلك أنّ الإسناد الحقيقيّ يكون بناءً على أنَّ ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ سُمّيت بذلك؛ "لأنَّها تصخُّ الأسماعَ، أي: تُبالِغُ في إسماعِها حتى تكادَ تصمُّها، قالَ الخليل: هي صيحةٌ تصُخّ الآذانَ صَخًّا لشدّةِ وقعِها"(3)، فهي الصّيحةُ التي تصمُّ الآذانَ لشدّةِ وقعِها، "وقيل: هي مأخوذةٌ من صخَّهُ بالحجَر؛ أي: صكَّهُ، فتكونُ ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ حقيقةً في النّفخة"(4)، ويكونُ من إسنادِ الشيءِ إلى مَن هو لهُ.

وأما الإسنادُ المجازيُّ؛ فبناءً على أنَّ ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ مشتقّةٌ من: "صخَّ لحديثِه؛ إذا أصاخَ له واستمعَ، وُصِفَتْ بها النّفخةُ الثانيةُ؛ لأنَّ الناسَ يَصيخونَ لها"(5)، يُقالُ: "صَخَّ لِحَديثِهِ مِثْلُ أصاخَ لَهُ، فوُصِفَتِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 135.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 103.
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1794.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 137.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 112.

النَّفْخَةُ بالصّاخَّةِ مَجازًا؛ لِأنَّ النّاسَ يَصِخّونَ لَها أيْ يَسْتَمِعونَ"[1]، فجُعلتِ النفخةُ مُستمِعة مَجازًا في الإسنادِ؛ لكونِها سببًا له"[2].

دلالةُ الفصلِ في ﴿يَوْمَ﴾:

الإغـمـاضُ في أحـوالِ الصّاخَّة اقتضى التفسيرَ بلا خَصاصة

فصلَ النظمُ الكريم قولَه تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ﴾ عمّا قبلَه؛ لكونه استئنافاً بيانيًّا لهُ؛ إذ نشأ سؤالٌ مفادُه: ما حالُ زمنِ الصاخّة؟ فاستأنفَ مُبيّناً لها بقولِه: ﴿يَوْمَ﴾، والتقديرُ: (أعني بالصّاخة يومَ يفِرُّ)؛ وحينئذٍ يكونُ الظرفُ ﴿يَوْمَ﴾ مَعمولاً لفعلٍ محذوفٍ تقديرُهُ (أعني)، قال الهرريّ: "أوْ منصوبٌ بمقدّرٍ؛ أي: أعني، ويكونُ تفسيرًا لـ ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾"[3]، والغرضُ من الفصل البيانُ التهويليُّ؛ إذ الصاخّةُ تهويلٌ ليومِ القيامة، وتفسيرُها وبيانُها يكون زيادةً في ذلك التَّهويل؛ إذ يفرُّ المرءُ من أقاربِه الأدنين.

دلالةُ الظّرفِ ﴿يَوْمَ﴾ وموقِعُه الإعرابيّ:

وقـتُ وقـوعِ الـصّـاخَّـة يـومُ فِرارٍ من الخاصَّة

عبّرَ النظمُ الكريم بلفظِ الظّرفِ ﴿يَوْمَ﴾ مُضافاً لجملةٍ فعليّةٍ في قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ﴾ بعدَ التعبيرِ بالظّرف (إذا) المُضافةِ لشَرطِها في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾، فيكونُ من اجتماعِ ظرفينِ مُضافينِ لجُملتينِ فعليّتين، الغرضُ منهما الإنذارُ والتخويفُ للمُخاطبين بأحداثِ زمنٍ استقباليٍّ تحصلُ فيه الصّاخّة ويفرُّ المرءُ من أقاربِه الأدنين، ونظراً لكونِ الزّمنِ الثاني مُرتبطاً بالزَّمن الأوّل وكاشفاً عنه؛ ذهبَ أغلبُ المُعربينَ والمُفسِّرين إلى أنَّ ﴿يَوْمَ﴾ بدلٌ من (إذا) بدلَ كلٍّ من كلٍّ[4]، قُصِدَ منه التفسيرُ والتوضيحُ، قال الطّيبيُّ: "ثمَّ فسَّر في أيِّ وقتٍ تجيءُ فقال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ﴾ بدلٌ من

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 61.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 104.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 137.
(4) السمين، الدر المصون: 10/ 696، والطيبي، فتوح الغيب: 16/ 302، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 137.

(إذا جاءت)، يعني: إذا رأى أعمالَهُ مُدوّنةً في كتابِهِ تذكَّرها وكانَ قد نَسيَها، فالمعنى: فإذا جاءَتِ الصّاخّةُ يومَ يفِرُّ المرءُ مِن أخيه"[1]، وبناءً عليهِ يكونُ التركيبُ الظّرفيُّ الثاني مُبدَلاً ممّا قبلَهُ؛ لمزيدٍ من التأكيدِ والتقريرِ لوقوعِ ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ مع بيانِ شأنٍ من شُؤونِ وقتِها المُخيفةِ، وهو الفرارُ من الأقاربِ؛ لانشغالِ كلٍّ بحالِهِ ووضعِهِ. ورجّحَ القونويُّ الإبدالَ من الظّرف على الإبدالِ منَ الصّاخَّة والتفسيرِ لها بمُرجِّحٍ صناعيٍّ عبَّر عنهُ بقوله: "بدلٌ من ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ أوْ من (إذا جاءت الصاخة) وهو الظّاهر؛ لأنّه بدلُ الكلِّ، وعلى الأوّلِ بدلُ الاشتمال يَحتاجُ إلَى تقديرِ (الضَّمير)، أي يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ عنده"[2]، وإنْ كانَ المعنى على تقديرِ كونِهِ تفسيراً للصاخَّة قويّاً: "أي: في هذا اليوم الّذي ذهبَت فيهِ هذه الحياةُ الدّنيا، وجاءَتِ الصاخّة يكونُ شأنُ ذلك الإنسان معَ المذكورين كذا"[3].

دلالةُ فعلِ (الفِرار) مادّةً وصيغةً:

الفِرارُ مِن رَوابطِ القُربى والجَسَد كالفِرار خَوْفاً مِنَ الأسَد

عبَّر النظمُ الكريمُ بفعلِ (الفِرار) مُضارعاً في قولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ﴾؛ للدِّلالة على الاستمرارِ التجدُّدي للفرارِ في ذلك اليوم؛ لكثرةِ انشغالِ كلِّ واحدٍ منهُم بأمرِهِ وكيفيّةِ نَجاتِه، فهُم في حالةِ فرارٍ دائمةٍ مُتجدِّدة، وللدِّلالة بمادّته على الهُروبِ بقوّةٍ وعجَلة، إذ الفرارُ إنَّما يكونُ من الأشياءِ المُخيفة؛ كالفرارِ من الأسَدِ قَصْداً للنَّجاة، ففيه تصويرٌ لسُرعةٍ في الحركةِ معَ الابتعادِ عنِ المواجَهة لشدَّةِ الانشغال.

وفي التعبير بمادّة الفرار كذلك دلالة على شدّةِ الهَوْلِ وعِظَمِ الحِساب ومَرارةِ المَوقِف، حتّى إنَّ الفعلَ المُخجِلَ عندَ العرب

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 302.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 104.
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1794.

المَشهورينَ بالنّجدة وإجارةِ الخائفِ ومُساعدةِ المُحتاج يقومونَ به بلا تردُّدٍ، يقولُ ابن عاشور: "وَقَدِ اجْتَمَعَ في قَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ إلَى آخِرِهِ أبْلَغُ ما يُفيدُ هَوْلَ ذَلِكَ اليَوْمِ، بحَيْثُ لا يَتْرُكُ هَوْلُهُ لِلْمَرْءِ بَقيَّةً مِنْ رُشْدِهِ؛ فإنَّ نَفْسَ الفرارِ لِلْخائفِ مَسَبَّةٌ فيما تَعارَفوهُ؛ لِدلالَتِهِ عَلَى جُبْنِ صاحِبِهِ، وهُمْ يَتَعَيَّرونَ بالجُبْنِ، وكَوْنَهُ يَتْرُكُ أعَزَّ الأعِزَّةِ عَلَيْهِ مَسَبَّةٌ عُظْمَى"[1].

دلالةُ (الفِرار) بينَ الحقيقةِ والمجاز:

كلٌّ منَ الإعراضِ والـهُـروب دالٌّ عـلى الانشـغالِ الـعَـظـيـمِ بالمكتوب

عبّر النظمُ الكريم بفعلِ (الفرار) في قولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ﴾؛ إمّا للدِّلالة به على مَعناهُ الحقيقيِّ، وهي الحركةُ المُتباعِدة معَ السُّرعة، قال الرازيّ: "يحْتَمِلُ أنْ يَكونَ المُرادُ مِنَ الفِرارِ ما يُشْعِرُ بِهِ ظاهَرُهُ وهوَ التَّباعُدُ والاحْترازُ"[2]، وإمّا لكونِهِ مُستعاراً لعدمِ الالتفاتِ والإقبالِ أو للإعراضِ، قال النّيسابوريّ: "أي لا يلتفتُ إلى واحدٍ مِن أدانيهِ؛ لعِظَم ما هو فيه، وقال أبو علي: ليسَ يرادُ بـ(الفرار) هاهنا الشِّرادُ ولا النِّفار، ولكنَّ المعنى: يومَ يفِرُّ المرءُ مِن موالاةِ أخيهِ، أوْ من مُساءلةِ أخيه؛ لاهتمامِهِ بشأنِهِ، وأنتَ تقولُ لمَنْ تُكلِّمُ: فرَرْتُ ممّا ألزمَكَ، لا تريدُ بذلك نِفارًا في المَحلِّ"[3]؛ فشبّهَ عدمَ الالتفاتِ أو الإعراضَ عنِ المذكورينَ بالفرار عنهُم مُبالغةً؛ بجامعِ عدمِ الاهتمام والاكتراثِ بأحوالِهم، ثمَّ حذفَ المشبّهَ وأبقى المشبَّه به على سبيلِ الاستعارةِ التصريحيَّة التبعيَّة، قالَ أبو السّعود: "أي يُعرِضُ عنُهم ولا يُصاحِبُهم ولا يَسألُ عن حالِهم كما في الدُّنيا؛ لاشتغالِه بحالِ نفسِهِ"[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 136.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 61.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 238.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 113.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿يَوْمَ يَفِرُّ﴾:

تـخـصـيـصُ الفِرار في الكلام لـخُـصـوصـيَّـة المَقام

أضافَ النظمُ الكريمُ لفظَ ﴿يَوْمَ﴾ إلى ﴿يَفِرُّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ﴾، والتقديرُ: (يومَ فرارِهِ)، والغرضُ من الإضافةِ التخصيصُ والتقييدُ لذلك اليوم، الطّويلِ المُمتدِّ الّذي تقَعُ فيه شؤونٌ كثيرة؛ منها الفرارُ عندَ تسلُّم الصُّحُف والانشغالِ بمُتابعتها، فيحدُثُ الفرارُ والإعراض، لكنْ بعدَ أنْ ينتهيَ ذلك تبدأُ الشّفاعة بينَ المؤمنين وغيرُها من أحوالِ ذلك اليوم؛ وإنَّما اقتصرَ النظمُ على صورةِ الفرار؛ لأنَّ السّياق في الإنذارِ من هَوْلِ ذلك اليوم، فناسبَ تقييدُ المضافِ بحالةِ المُضافِ إليه، ولذا قال القونوي: "والمُراد باليوم أمرٌ مُمتدٌّ يصحُّ وقوعُ أمورٍ كثيرةٍ فيه، ولعلَّ هذا في موطنٍ، والشّفاعةُ بينَهُم في مَوطنٍ آخرَ؛ فلا إشكالَ"[1].

دلالةُ التعريفِ بـ(أل) في ﴿ٱلْمَرْءُ﴾:

المَـرْءُ الكافِر معَ الأقاربِ في تنافُر

عرّفَ النظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلْمَرْءُ﴾ بـ(أل) في قولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ﴾؛ إمّا للدلالةِ به على الاستغراقِ الكليِّ، فيكونُ شاملاً لكل امرئٍ من أهلِ النّشر وهو يَنتظِرُ الصُّحُف بالأيمانِ أوْ بالشّمائل أوْ عندَ متابعةِ المُدوَّن فيها، أوْ للدّلالة بها على العَهْد في الإنسان الكافر المتقدِّم في قولِهِ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾؛ إذ لمّا عايَنَ النّشرَ وأدركَ الخُسران المبين دخلَ في انشغالٍ بجنايتِهِ على نفسِهِ أذهلَتْهُ عن أقربِ المُقرَّبين إليه، وأمّا المؤمنونَ الّذين بُشِّروا بالفوزِ المُبين فإنّهم غيرُ مُنشغلينَ عن أقاربهم؛ لاطمئنانِهم برضوانِ ربِّهم عليهم، في حينِ قال ابن عاشور: "والأقْرَبُ أنَّ هَذا فِرارُ المُؤْمِنِ مِنْ قَرابَتِهِ المُشْرِكِينَ خَشْيَةَ أنْ يُؤاخَذَ بتَبِعَتِهِمْ إذْ بَقوا عَلَى الكُفْرِ"[2]. بقي أنَّ التعبيرَ بـ﴿ٱلْمَرْءُ﴾ شاملٌ للرّجلِ والمرأة على سبيلِ التّغليب.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 104.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 136.

دلالةُ ﴿مِنۡ﴾ في قوله ﴿مِنۡ أَخِيهِ﴾:

ذكـرُ الابـتـداء أبـلـغُ عـنـدَ عـدمِ التـعـرُّضِ للانتهاء

عبّرَ النظمُ الكريم بلفظِ ﴿مِنۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ﴾؛ للدِّلالة بها على البيانِ للمهروبِ عنهُ معَ الابتداءِ بالفرارِ منَ الأقارب دونَ تحديدٍ لمَن يَنتهي إليهم الفرار، لكنَّه معلومٌ بطريقِ الأولويَّة؛ فإنْ بَدَأ الفِرارُ من الأقاربِ فإنّه لا يَنتهي أمدُهُ، وذلك أبلغُ من التحديدِ للانتهاء؛ إذ يفيدُ العمومَ والكَثرة، ورأى ابنُ عاشور أنَّ حرفَ: "﴿مِنۡ﴾ هُنا يَجوزُ أنْ يَكونَ بمَعْنَى (التَّعْليلِ) الَّذي يُعَدَّى بهِ فِعْلُ الفِرارِ إلَى سَبَبِ الفِرارِ حينَ يُقالُ: فرَّ مِنَ الأسَدِ، وفَرَّ مِنَ العَدوِّ، وفَرَّ مِنَ المَوْتِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ بمَعْنَى المُجاوَزَةِ مِثْلَ (عَنْ)"[1].

دلالةُ تقديمِ (الأخ)، وإضافته:

الأخُ في المُلمّات مُـعـينٌ لمواجـهةِ الصُّعوبات

قدّمَ النظمُ الكريمُ (الأخَ) على المَهروبِ منهُم منَ الأقاربِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ﴾؛ للدّلالةِ على ظُهورِ المُعاونةِ والمُساعدة في (الأخ)؛ لقوّته على بقيَّةِ الأقاربِ المذكورينَ؛ وإنْ كانت قرابتُهُ أضعفَ في المودَّة ممّا بعدَهُ؛ لكنَّه الّذي يُتّكَأ عليه في الصُّعوبات والمُلمّات، فإنْ كان مناطُ المُساعدةِ مَهروباً منهُ وعنه فمِن بابِ أولى بقيّةُ المذكورينَ ممّا بعده، بقي أنَّ الإضافةَ تدلُّ على مزيدِ الاتّصال بما يقوّي عُرى الارتباط.

دلالةُ الجمعِ بينَ (الأمِّ والأبِ):

الأبوانِ المُحسِنان يُـعـرِضُ عنهُمـا ذو الحِرمان

جمعَ النّظمُ الكريم بينَ (الأمِّ والأب) في قولِه تعالى: ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾؛ للدِّلالة على قرابتِهما الشّديدة على السّواء، وقدّمَ الأمّ؛ لأنّها موطنُ المُعاونةِ والرّحمةِ والحنان، ومع ذلك يفِرُّ المرءُ منها ولا يُعينُها، وفي هذا الجمع دلالة على شدَّة الهول في ذلك اليوم؛ إذ يفرُّ العبد من أحبِّ الناس إليه وهما أمُّه وأبوه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 135.

دلالةُ ترتيبِ المَهروبِ منهم المَذكورين:

التّرتيبُ التّنازليّ في القوّة أرجَحُ مـنَ الـترتـيـبِ الـتّـصـاعُـديّ في القُربى

توقّفَ المفسِّرون عندَ سرِّ ترتيبِ المهروبِ منهم المذكورينَ في قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾، واتّفقتْ كلمتُهم على أنَّ الترتيبَ ملحوظٌ فيه التّصاعُدُ بدرجةِ القُربى والمودّةِ والعلاقة؛ لأنّ السّياق في الفرارِ[1]، قالَ ابن عاشور: "وَرُتِّبَتْ أَصْنافُ القَرابَةِ في الآيَةِ حَسَبَ الصُّعودِ مِنَ الصِّنْفِ إلَى مَنْ هوَ أقْوَى مِنْهُ؛ تَدَرُّجًا في تَهْويلِ ذَلِكَ اليَوْمِ؛ فابْتُدِئَ بالأخِ لِشِدَّةِ اتِّصالِهِ بأخيهِ مِنْ زَمَنِ الصِّبا، فيَنْشَأُ بذَلِكَ إلْفٌ بَيْنَهُما يَسْتَمِرُّ طولَ الحَياةِ، ثُمَّ ارْتُقِيَ مِنَ الأخِ إلَى الأبَوَيْنِ وهُما أشَدُّ قُرْبًا لابْنَيْهِما، وقُدِّمَتِ الأُمُّ في الذِّكْرِ؛ لأنَّ إلْفَ ابْنِها بها أقْوَى مِنْهُ بأبيهِ وللرَّعْيِ عَلَى الفاصِلَةِ، وانْتُقِلَ إلَى الزَّوْجَةِ والبَنينَ وهُما مُجْتَمَعُ عائِلَةِ الإنْسانِ، وأشَدُّ النّاسِ قُرْبًا بهِ ومُلازَمَةً"[2]. وعلّقَ القونويّ على كلام البيضاوي: "وتأخيرُ الأحبِّ فالأحبِّ للمُبالغة؛ كأنَّه قيلَ: يفِرُّ من أخيهِ بلْ من أبوَيهِ بلْ من صاحبتِهِ وبَنيه"[3] بما نصُّه: "أي الكَلام للترقّي لا للتنزيل، هذا بناءً عَلَى الأغلبِ الأكثر؛ لكونِ الطِّباع مختلفةً؛ فمِنهم مَن أحبَّ أخاه فرطَ محبّةٍ، ومنهم مَنِ اشتدّتْ محبّتُهُ لصاحبتِهِ وغير ذلك، لكنّ ما ذكره المُصَنّف هوَ الغالبُ الكثير"[4]. والّذي يَرتضيهِ السّياق ويدلُّ عليه أنَّ الترتيب تنازليٌّ لهم: "بلحاظِ المُعاونةِ والقوّة، حيث إنّ الأخ أقدمُ، ثمّ الأمّ من جهةِ شدّة التعلّق، ثمّ الأبُ، ثمّ الصّاحبةُ والبنون"[5]؛ إذ الموقفُ للفرارِ يُناسِبُ الابتداءَ بالأقوى من جهةِ المُعاونة، فهي أرجحُ من لحاظِ دَرجةِ القَرابةِ قوّةً وضَعْفاً.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 270.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 135.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 288، والزمخشري، الكشاف: 4/ 705، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 137.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 104.

(5) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 9/ 48.

دلالةُ الإطناب بدلَ الإيجاز:

الإطنابُ في الإنذارِ الجَليل يُحقّقُ المَزيدَ منَ التّهويل

عبّرَ النظم الكريم بأسلوبِ الإطناب في سَردِ الأقاربِ قوةً وضعفاً، في قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ دونَ الإيجاز؛ بأن يقولَ مثلاً: (يفرُّ من أقربِ المُقرّبين إليه)، وذلك: "لإحْضارِ صورَةِ الهَوْلِ في نَفْسِ السّامِعِ"[1] من خلالِ التفصيلِ في مقامِ الإنذارِ والتّخويف والتذكير.

دلالةُ التلازُمِ والاكتفاءِ في الهاربِ والمَهروبِ منه:

الجمعُ بينَ الإيجازِ والإطنابِ مِن جَماليّات الخِطاب

أوجزَ النظمُ الكريمُ من خلالِ الاتكاءِ على دلالتي (التّلازم والاكتفاء) في الإطنابِ الواردِ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾؛ لتحقيقِ دمجٍ أسلوبيٍّ بينَ الإطنابِ من جهةٍ معَ الإيجازِ فيه من جهةٍ أُخرى بالاعتمادِ على المُلازمةِ والاكتفاء، يقولُ ابنُ عاشور: "وَكُلٌّ مِنْ هَؤُلاءِ القَرابَةِ إذا قَدَّرْتَهُ هوَ الفارُّ كانَ مَنْ ذُكِرَ مَعَهُ مَفْرورًا مِنْهُ، إلّا قَوْلَهُ: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾؛ لِظُهورِ أنَّ مَعْناهُ: (والمَرْأةِ مِنْ صاحِبِها)، ففيهِ اكْتِفاءٌ"[2].

دلالةُ العُدولِ عنِ (الزّوجةِ) إلى (الصّاحبة):

الزّوجةُ الوَدودةُ الطيّبةُ أهلٌ وبيتٌ وصاحِبة

عدلَ النظمُ الكريم في سَرْدِ الأقاربِ عن ذكرِ لفظِ (الزّوجة) إلى ذكرِ لفظِ (الصّاحبة) في قوله تعالى: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ مع أنَّ بقيّةَ الأقاربِ ذُكِروا بأسماءِ قَرابتِهم الأصليَّة، وفي ذلك يقولُ ابن عاشور: "وَإنَّما ذُكِرَتْ بوَصْفِ (الصّاحِبَةِ) الدّالِّ عَلَى القُرْبِ والمُلازَمَةِ دونَ وصْفِ (الزَّوْجِ)؛ لِأنَّ المَرْأةَ قَدْ تَكونُ غَيْرَ حَسَنَةِ العِشْرَةِ لِزَوْجِها؛ فلا يَكونُ فِرارُهُ مِنْها كِنايَةً عَنْ شِدَّةِ الهَوْلِ"[3].

سرُّ الفصلِ في جُملةِ ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ﴾:

بينَ الجوابِ والتّعليل يَعظُمُ التّهويل

فصلَ النظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 136.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 136.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 136.

عمّا قبلَه؛ إمّا لكونِهِ دليلاً لجوابِ شرطِ (إذا) على رأيِ جُمهورِ المُفسِّرين، والتقديرُ: (فإذا جاءَتِ الصّاخةُ شُغِلَ كلُّ امرئٍ منهُم بمصالحِهِ عن الآخر)، والدليلُ على ذلك الجوابِ المَحذوف قولُهُ: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ﴾؛ وأمّا على رأيِ مَن جعلَ ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾ الآيات، دليلاً على جوابِ الشَّرطِ المَحذوف فإنَّ سرّ فصلِ هذه الجملةِ عمّا قبلَها فلأنّها استئنافٌ بيانيٌّ دالٌّ على التعليلِ للفِرار؛ إذ سببُ الفرار حلولُ شأنٍ لكلِّ واحدٍ منهم يُشغلُهُ بنفسِهِ[1]، أو أنَّها "مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنافًا ابْتِدائيًّا؛ لِزيادَةِ تَهْويلِ اليَوْمِ"[2].

نكتةُ تقديمِ الخبر ﴿لِكُلِّ﴾:

الـتّـشـويـقُ والاهـتـمـام يَـسـتـدعـيـانِ الـتـقـديـمَ في الكَلام

قدّمَ النظمُ الكريم مُتعلّق الخبرِ على المبتدأ ﴿شَأۡنٞ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ﴾؛ للدلالةِ على الاهتمامِ بمتعلّقِ الخبر؛ إذ المقصودُ بيانُ شأنِهم، كما أنَّ في التقديم تشويقاً لمعرفةِ ما لكلِّ واحد منهم، تحقيقاً للمَزيدِ من الإصغاء، "ولِيَتَأَتَّى تَنْكيرُ ﴿شَأْنٌ﴾ الدّالِّ عَلَى التَّعْظيمِ؛ لِأَنَّ العَرَبَ لا يَبْتَدِئونَ بالنَّكِرَةِ في جُمْلَتِها إلّا بمُسَوِّغٍ، ومِنْها تَقْديمُ الخَبَرِ عَلَى المُبْتَدَأِ"[3].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ﴾:

التنصيصُ على العُموم تحقيقٌ لدلالةِ المَفهوم

أضافَ النظمُ الكريم لفظَ (كلّ) إلى ﴿ٱمۡرِيٕ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ﴾؛ للدِّلالة على الاستغراقِ الكليِّ المُستفادِ التزاماً من قولِهِ: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ﴾ ليكونَ تنصيصاً على إرادتِهِ، قال القونوي: "والمَعْنَى لكلِّ واحدٍ واحدٍ من هَؤُلاء المَذْكورين شأنٌ أي حالٌ حائلةٌ"[4]؛ إذ فُهِمَ من فرارِ المَرْءِ منهم عن الآخر أنَّ الجميعَ في حالةِ فرار، فأتى باللَّفظ الكليِّ المُستغرقِ للتنصيصِ

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1795.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 136.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 136.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 105.

على دلالةِ العمومِ وأنَّ سببَ فرارِ الكلِّ الإفراديّ الشأنُ الذي يشغلُهم جميعاً.

دلالةُ التّكرار والاكتفاءِ في ﴿ٱمۡرِيٕ﴾:

في التّكرار توكيدٌ للحُكم في الذّهن وإقرار

كرّرَ النظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱمۡرِيٕ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ﴾ بعدَ قولِه: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ﴾؛ للدّلالة على أنَّ فرارَ المرءِ من المذكورين مُعلَّلٌ بأنَّ كلَّ امرئٍ منهم مُنشغِلٌ بشأنِه، فالتكرارُ للمَرءِ في الحُكمِ والتعليلِ مقرِّرٌ لحالةِ الفرارِ الكليِّ من خلال التنصيصِ على العلّةِ المتحقِّقة في كلِّ امرئٍ منهم، وإنَّما عدلَ النظمُ عن الإضمار إلى الإظهارِ؛ لكمالِ التقرُّرِ في الذهن، واكتفى بذكرِ الرِّجال عن النِّساء تغليباً ومُقايسةً، قال القونوي: "وذكرُ (المرء) في الموضعين؛ لأنَّ عادة القُرآن العظيم الاكتفاءُ بذكر الرِّجال؛ لعلْم حالِ النِّساء بالمقايسةِ فيما لم يكُنْ خصّيصًا لهم، وإظهارُ ﴿ٱمۡرِيٕ﴾ في الثاني؛ لكمالِ التقرُّرِ في الذهن"[1].

دلالةُ النّعت بالجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنۡهُمۡ﴾:

التنصيصُ على المُقتضى توضيحٌ مُرتضَى

نعتَ النظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱمۡرِيٕ﴾ النكرة بالجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ﴾؛ للدّلالة على التخصيصِ والتقييدِ؛ والغرضُ منه التنصيصُ على كلِّ واحدٍ واحدٍ من الأقارب في أنَّه مشغولٌ عن غيره لاهتمامِه بحالِه، فلو لم تتخصَّص النكرةُ بهذا المُخصِّص النعتيِّ لتوُهِّم أنّ ذلك الانشغالَ منحصرٌ في بعض دون بعض، فالنعتُ بالجار والمجرور تنصيص دالٌّ على عموم الانشغالِ بجميعِ المَذكورينَ، الَّذين لا يَخلو أهلُ المَحشَر من واحدةٍ من تلك العلاقات.

دلالةُ تكرارِ الظَّرف ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ وإضافتِهِ:

كرّرَ النظمُ الكريم ذكرَ (اليوم) في قولِه تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 105.

استحضارُ اليومِ بحدَثِه ربطٌ للتعليل بمُسبَّبه

﴿مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ بعدَ أنْ ذكرَ (اليوم) في قولِه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ﴾؛ لزيادةِ التهويلِ لذلك اليوم، ولربطِ الانشغالِ بالشّؤونِ الخاصَّة بذلك اليوم الّذي يُعرضُ فيه المرءُ عن أقاربِه المُقرّبين، فكما كرّرَ النظمُ (المرءَ) ونصّصَ على الجميعِ بالنّعت ﴿مِّنْهُمْ﴾ كرّرَ (اليوم) لاستحضارِ فظاعتِه عندَ تعليلِه. بقي أنَّ (اليوم) وقعَ مضافاً لـ(إذ) الظرفيَّةِ الدالّةِ على الزّمن الّذي وقع فيه الفرار، والتنوينُ فيها عوضٌ عن جملةِ ﴿يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾، والغرضُ من الإضافةِ التخصيصُ بذلك اليوم؛ لأنَّ الاستدعاءَ الزّمنيَّ إنّما سيقَ لربطِه بالزّمن الّذي وقعَ فيه الفرارُ الدّاعي إلى التّعليل.

دلالة التنكير في ﴿شَأْنٌ﴾:

الكَفَرةُ الضّالّون عَن أقاربِهم ذاهِلون

نكّرَ النظمُ الجليلُ لفظَ ﴿شَأْنٌ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾؛ للدِّلالة بتنوينِه على التعظيمِ والتّفخيم؛ إذ كلمةُ (شأن) وحدَها تأتي في سياقِ الإبهامِ التعظيميِّ، المُحتاج إلى التفسيرِ والبيان؛ ولذا يقالُ: (لهُ شأنٌ عظيمٌ)، قال الهرري: "و(الشّأنُ) لا يقالُ إلّا فيما يَعظُمُ من الأحوالِ والأُمور"[1]. والغرضُ من الإبهامِ التعظيميِّ الإشارةُ إلى عِظَمِ ذلك الأمرِ الّذي جعلَ كلَّ واحدٍ واحدٍ من أهلِ الكُفر في حالةِ انشغالٍ، لأنّ الظّاهر المناسبَ للسّياق أنَّ الكليّة الإفراديّة مختصّةٌ بالكفار، إذ جاءَهم من الشّأنِ والخطبِ العظيم ما أذهلَ كلَّ واحدٍ منهم عَن أقربائِه؛ فكيفَ بأنصارِهم وجماعاتِهم؟.

دلالةُ الفعلِ ﴿يُغْنِيهِ﴾ مادّةً وصيغةً:

الشَّأنُ المُغني هو الحالُ المُزري

عبّرَ النظمُ الكريم بفعلِ (الإغناء) مُضارعاً في قولِه تعالى: ﴿شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾؛ للدِّلالة به على التجدُّدِ الاستمراريِّ لعمليّةِ الإغناءِ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 138.

مما يفيدُ وجودَ شأنٍ يَشغلُهُ أوْ يَصرِفُهُ عن قرابتِهِ بشكلٍ متجدِّدٍ ومستمرٍّ في ذلك اليوم؛ لما فيه من صعوبةٍ وشدّةٍ وهولٍ وخوفٍ، وللدِّلالة بمادّتِهِ على حصولِ كفايةٍ تشغلُهُ أوْ تَصرفُهُ عن الاهتمامِ بقرابتِهِ، كما تحصلُ للغنيِّ ثروةٌ تَشغلُهُ وتَصرفُهُ عنِ الاكتراثِ والاحتياجِ لغيرِهِ.

التهكُّم بالمُشركين بحُصول ما يُغنيهم عن قَرابتِهم يومَ الدّين

دلالةُ الاستعارةِ في ﴿يُغْنِيهِ﴾:

عبّرَ النظمُ الكريم بفعلِ (الإغناء) في قولِهِ تعالى: ﴿شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾، وأصلُهُ – كما قال ابن عاشور – : "جَعْلُ الغَيْرِ غَنيًّا، أيْ غَيْرَ مُحْتاجٍ لِشَيْءٍ في غَرَضِهِ، وقَدِ اسْتُعْمِلَ هُنا في مَعْنَى (الإشْغالِ)، والإشْغالُ أعَمُّ؛ فاسْتُعْمِلَ الإغْناءُ الَّذي هوَ نَفْعٌ في مَعْنَى الإشْغالِ الأعَمِّ عَلَى وجْهِ المَجازِ المُرْسَلِ أوِ الاسْتِعارَةِ؛ إيماءً إلَى أنَّ المُؤْمِنينَ يَشْغَلُهُمْ عَنْ قَرابَتِهِمُ المُشْرِكينَ فَرْطُ النَّعيمِ ورَفْعُ الدَّرَجاتِ، كَما دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ عَقِبَهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ إلَى آخِرِ السّورَةِ"[1]. والّذي يترجّحُ لدينا أنَّ المجازَ هنا استعارةٌ تهكميّةٌ، وذلك بتشبيهِ الانشغال بأمرٍ مُزرٍ ومَعيبٍ وفيه الهمُّ والغمُّ بالإغناءِ وعدم الاحتياج إلى الغيرِ لثروتِهِ ومالِهِ العظيم، ثمَّ حذفَ المشبّهَ المضادَّ بقيودِهِ للمشبّه به كما هو قانونُ الاستعارةِ التهكُّميَّة، وأبقى المشبَّهَ به على سبيلِ الاستعارة التصريحيَّة، وكذا تتحقّقُ الاستعارةُ فيما لو كانَ معنى ﴿يُغْنِيهِ﴾ يَصرِفُه، "قالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: يُغْنيهِ أيْ يَصْرِفُهُ ويَصُدُّهُ عَنْ قَرابَتِهِ"[2]؛ إذ كلٌّ من الانشغالِ والانصرافِ لازمانِ للغنيِّ، وهذا وجهُ حكم ابن عاشورٍ بالمجاز المُرسَل، لكنَّ إرادة التشبيهِ التهكميّ للمُنشغل عن قرابتِهِ بالهمِّ العظيم بالغنيِّ المُنشغلِ بمالِهِ الوفير أرجحُ، "قالَ أهْلُ المَعاني: يُغْنيهِ أيْ ذَلِكَ الهَمُّ الَّذي بسَبَبِ خاصَّةِ نَفْسِهِ قَدْ مَلَأ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 137.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 62.

صَدْرَهُ، فلَمْ يَبْقَ فيه متسعٌ لهمٍّ آخرَ، فصارت شَبيهًا بالغَنيِّ في أنَّهُ حَصَلَ عِنْدَهُ مِنْ ذَلِكَ المَمْلوكِ شَيْءٌ كَثيرٌ"[1]. بقي أنَّ تفسيرَهُ المُنشغلَ بـ(المؤمنين) عن قَرابتِهم المُشركينَ مجرّدُ احتمالٍ، والأرجحُ منه انشغالُ المشركينَ بعضِهم عن بعضٍ، وأمّا المُؤمنونَ فلا يَفِرّون من قريبٍ كافرٍ ولا مُشركٍ ولا عاصٍ.

دلالةُ الفصلِ في جملة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾:

يعظُمُ الإنذار بتقسيمِ النّاسِ يومئذٍ إلى أخيارٍ وأشرار

فصلَ النظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ عمّا قبله: إمّا لكونِهِ جوابَ الشَّرط على الرّاجحِ المختار؛ لأنَّ جواب (إذا) هو بيانُ انقسامِ الناس إلى فريقينِ دونَ انشغالِهم بعضِهم عن بعض؛ إذ الإنذارُ والتخويف يتلاءمُ مع مَن يكون المنذرُ ويَختار؟ قال ابنُ عاشور: "وَجُمْلَةُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ جَوابُ (إذا)، أيْ إذا جاءَتِ الصّاخَّةُ كانَ النّاسُ صِنْفَيْنِ؛ صِنْفٌ وُجوهُهُمْ مُسْفِرَةٌ، وصِنْفٌ وُجوهُهُمْ مُغْبَرَّةٌ"[2]. وإمّا لكونها استئنافاً بيانيًّا بعدَ تقدُّم الجوابِ المقدَّر بـ(شُغِل الناسُ بعضُهم عن بعض)؛ إذ بعدَ ذكرِ الأهوال وعدمِ إسعافِ أحدٍ لأحد في ذلك الموقفِ الرَّهيب، نشأ سؤالٌ عن حالِ الناس في ذلك اليوم؛ فبيّنَهُ بذلك التقسيم والتّصنيف للنّاس على نوعين، قال الرازي: "لَمّا ذَكَرَ حالَ يَوْمِ القيامَةِ في الهَوْلِ بَيَّنَ أنَّ المُكَلَّفينَ فيهِ عَلَى قِسْمَيْنِ؛ مِنْهُمُ السُّعَداءُ ومِنْهُمُ الأشْقياءُ"[3].

نكتةُ الابتداءِ بالنّكرةِ ﴿وُجُوهٌ﴾:

تنويعُ النّاسِ إلى فريقَينِ تهييجٌ لاختيارِ أحَدِ السَّبيلين

نكّرَ النظمُ الكريم لفظَ ﴿وُجُوهٌ﴾ الواقعَ مُبتدأً في قولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾؛ للدِّلالة به على التنويعِ والتفصيل؛ قال ابن عاشور: "وَتَنْكيرُ ﴿وُجُوهٌ﴾ الأوَّلِ والثّاني لِلتَّنْويعِ، وذَلِكَ مُسَوِّغُ وُقوعِهما

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 62.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 137.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 62، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 139.

مُبْتَدَأً"[1]؛ إذ انقسمَتِ الناسُ إلى نوعين؛ وجوهٌ مُستبشرةٌ ووجوهٌ مُغبَرّة كالِحة، وذلك هو مُسوِّغُ الابتداء بالنّكرة، ويؤولُ هذا المسوِّغ إلى تقسيمِ العامِّ بقصدِ الحَصْر، فيكونُ من قبيلِ العُمومِ المخصَّص بالنّوعينِ الحاصِرين، والتقديرُ: (إذا جاءتِ الصاخّة فالناسُ على نوعين؛ نوعٌ كذا ونوعٌ كذا). قال القونوي: "﴿وُجُوهٌ﴾ مبتدأٌ، خبرُهُ ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾، ويَسوغ كونُ المبتدأ نكرةً إذا كان مفيدًا؛ مثلُ (كوكبٌ انقضَّ السّاعةَ)، بخلافِ (رجلٌ قائمٌ)، وهنا يفيدُ فائدَةً تامّةً لا سيَّما أنَّه يُنبئ عن التّنويع، أي أحوالُ المكلّفينَ منقسمةٌ؛ فريقٌ منهم تبيَضُّ وجوهُهُم وهم السُّعَداء، وفريقٌ منهم تسوَدُّ وجوهُهُم وهم الأشقياء"[2]. ونكتةُ تنكيرِ المبتدأ إبهامُ المراد بها حتَّى يأتيَ التفسيرُ لها، وبذلك يتحقّقُ التشويقُ لمعرفةِ أصحابِ تلك الوجوهِ وصِفاتهم، فيزدادُ المُنذَرُ حِرصاً على أنْ يكون منهم إنْ أرادَ السَّلامة.

دلالةُ المَجازِ المُرسَلِ في ﴿وُجُوهٌ﴾:

الوُجوهُ الكاشِفة عـنِ الـسَّـعـادةِ الغامِرة

عبّرَ النظمُ الكريم عن سَعادةِ المُؤمنينَ وبَهجتِهم يومَ القيامة بقولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾؛ لأنَّ إسفارَ الوُجوهِ وإضاءَتَها يدلُّ على فرحةِ النفسِ وسَعادتِها، فيكونُ ذكرُ (الوجوه) مَجازاً مُرسَلاً من ذكرِ الجُزءِ وإرادةِ الكلِّ، وسرُّ الاقتصارِ عليها؛ لأنَّها الكاشفةُ عن فرحةِ القلوبِ والنّفوس؛ إذ الإسفار والإضاءةُ اللذانِ يكونانِ على الوجهِ مُظهرانِ لسعادةٍ غامرةٍ تملأُ النفسَ والرّوحَ.

دلالةُ تكرارِ الظّرفِ (يوم):

التـكـرارُ لـلـزّمـان تـأليـفٌ لـقـلـبِ المُنْذَرِ بالبَيان

كرّرَ النظمُ الكريم لفظَ (يوم) مُضافاً في قولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾؛ للدّلالة على التنويهِ بشأنِ ذلك اليومِ المَهول، فيكونُ في تكرارِه تنبيهٌ للمُنذَرِ بصحَّةِ وقوعِهِ، وتحقيقٌ لكونِهِ يوماً كسائرِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 137.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 105.

الأيام التي تأتي ويتحقّقُ جَرَيانُها حتى أُلِفَت، فلا مجالَ للإنكارِ بصحّةِ وقوعِهِ وحُصولِهِ؛ إذ هو يومٌ من الأيّام، لكنّه يومُ الجزاء والحساب بخلافِ هذه الأيّام التي للأعمالِ والأفعال. ونبّهَ ابنُ عاشورٍ إلى فائدةٍ تركيبيّةٍ لتكرارِ الظّرف بقوله: "وَإعادَةُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ لِتَأْكيدِ الرَّبْطِ بَيْنَ الشَّرْطِ وجَوابِهِ، ولِطولِ الفَصْلِ بَيْنَهُما، والتَّقْديرُ: (وُجوهٌ مُسْفِرَةٌ يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أخيهِ)... إلَى آخِرِهِ، وقَدْ أغْنَتْ إعادَةُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ عَنْ رَبْطِ الجَوابِ بـ(الفاءِ)"[1].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾:

تـخـصـيـصُ (اليـوم) لبيانِ كَرامةِ القَوْم

أضافَ النظمُ الكريمُ لفظَ (يوم) إلى الظَّرف (إذ) في قولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾؛ للدِّلالة على التخصيصِ لليومِ بظَرفٍ حدثَ فيه أمرٌ، ولذا كانَ التنوينُ في (إذ) تنوينَ عوضٍ عن جملةٍ[2]، والتقدير: (يومَ يفرّ المرء...)، والغرضُ من تقييدِ الظّرف بذلك الظّرف المُرتبطِ بحدثٍ مَهولٍ الدلالةُ على أنَّ كلَّ ذلك الحدث وما يقَعُ فيه من فرارِ المُشركينَ بعضِهم من بعض فإنَّ المؤمنينَ في حالةِ استبشارٍ وسُرور وجمالٍ وراحةٍ.

دلالةُ تقديمِ الظّرفِ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ على عاملِهِ:

انحصارُ الكرامة بأهلِ الاستجابَة

قدّمَ النظمُ الكريم الظّرفَ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ على عاملِهِ ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾؛ للدّلالةِ على الحَصْرِ والاختصاص؛ إذ ينحصرُ الإسفارُ والاستبشارُ والسّرور في تلك الوجوهِ انحصارَ الصِّفة في الموصوف، فلا يتعدّاه إلى غيرهم، كما أنَّ التقديمَ لهُ حقّقَ رعايةً للفاصلةِ، قال القونوي: "و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مُتعلِّقٌ بالخبر؛ قُدِّمَ عليه لرَعايةِ الفاصلةِ، ولا يَبعُدُ الحَصْرُ"[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 137.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 139.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 105.

دلالةُ التّعبير بلفظِ ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ مادّةً وصيغةً:

الاتّصافُ الاستمراريّ بحالةِ النّورِ والإسفارِ

عبّرَ النظمُ الكريم بلفظِ اسمِ الفاعل ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾؛ للدِّلالة به على ثبوتِ وصفِ الإضاءةِ في ذلك اليومِ واستمرارِهِ في تلك الوجوهِ النّضِرة، كما يفيدُ الاتصافُ بالإسفارِ في الحالِ والاستقبال؛ مع أنَّ تلك الحالَ مُقترنةٌ بالخوفِ والفرار، إلّا أنَّهم في حالةِ استبشارٍ وإسفار، وليدلَّ بمادّتِه على الإشراقِ والجمالِ والنّورِ والضّياء؛ لأنه: "يُقالُ: أَسْفَرَ الصُّبْحُ، إذا ظَهَرَ ضَوْءُ الشَّمْسِ في أُفُقِ الفَجْرِ، أيْ وُجوهٌ مُتَهَلِّلَةٌ فرَحًا وعَلَيْها أثَرُ النَّعيمِ"[1].

سرُّ اختيارِ التعبيرِ بلفظِ ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾:

الوُجوهُ الإيمانيّة منيرةٌ مَلائكيَّة

اختارَ النظم القرآنيُّ لفظَ ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾؛ للدِّلالة على أنَّ وجوهَ المؤمنينَ يومَ النّشرِ والحِساب قد صارَتْ من إضاءَتِها وجوهاً مَلائكيّة؛ إذ نُظِرَ إلى قولِهِ تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾، وإنْ كان بمَعنى الكتبةِ أوِ السّفَراء، لكنَّهم وُصِفوا بـ(السّفَرة)، وحرصَ النظمُ على ربطِ إسفارِ الوُجوه بأولئك السّفرةِ الكرامِ البَرَرة.

دلالةُ بابِ (الإفعال) في ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾:

نسبةُ الوُجوه للإسفار مُبالغةٌ في كمالِ الأنوار

عبّرَ النظمُ الكريم باسمِ الفاعل ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ المشتقِّ من الفعلِ الثلاثيِّ المزيدِ بالهمزة؛ للدِّلالة بها على الدُّخول في الشّيء، والصّيرورةِ والانتسابِ لهُ على سبيلِ المُبالغة، فيقالُ: (أسفَرَ الصُّبحُ) أي صارَ ذا إسفارٍ ودخلَ في وقتِهِ، ونسبَ إليه، فتكونُ الهمزةُ فيه للنِّسبة للشيءِ إلى ما هو أصلٌ له، والمعنى: صارتِ الوجوهُ ذاتَ إسفار، وليستِ الهمزةُ فيه للتّعدية،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 137.

ولذا قالَ القونوي: "وإليه أشارَ بقوله: (من إسفارِ الصبح وإضاءتِهِ من قيامِ الليلِ أوْ من آثارِ الوضوءِ أوْ من طولِ ما اغبَّرت في سبيل اللّه)[1]، والأوْلى: مِن نورِ الإيمان والعملِ الصّالح؛ فإنّه عامٌّ لِمَن يقابلُ الفريقَ الثاني، بخلافِ ما ذكَرَ فإنَّه مختصٌّ ببعضِ المُؤمنينَ ومحمولٌ عَلَى بَعْضِ أفرادِهِ الكاملةِ"[2].

سرُّ حذفِ مُتعلَّق ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾:

إسفارُ الوُجوهِ المُؤمنة لأنَّها بالأعمال الصّالحةِ مُقترنة

حذفَ النظمُ الكريمُ المتعلَّق بـ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾؛ للدِّلالة على العموم، الَّذي يُعبّر عنه بالإيمانِ والعمَل الصّالح؛ فالوجوهُ ثبتَ لها الإسفارُ، لكنْ نشأ ذلك الإسفارُ من أمرٍ اختلفَ المفسِّرون في تحديده، فقيل: مِن آثارِ الوضوء[3]، وقيلَ: من قيامِ اللَّيل، وقيل: مِن طولِ ما اغبرّتْ به في سبيلِ اللّه ... إلخ، وعِنْدي أنَّهُ بسَبَبِ الخَلاصِ مِنْ عَلائِقِ الدُّنْيا والاتِّصالِ بعالَمِ القُدْسِ ومَنازِلِ الرِّضْوانِ والرَّحْمَةِ[4]، والرّاجحُ أنَّ الَّذي يجمَعُ ذلك هو الإيمانُ والعملُ الصّالح؛ والقرينةُ الدالّة على تقديرِهِ ما وردَ في مُقابلِ هذه الوُجوه النيّرة من اتِّصاف الكافرينَ بالكُفر والفُجور، وكلاهُما مُقابلٌ للإيمانِ والعملِ الصّالح، كما أشار إليه القونوي[5].

دلالةُ الوَصفِ بـ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ مادّةً وصيغةً:

الوُجوهُ الضّاحكة منَ الأشرارِ ذَوي الوُجوهِ الكالِحة

عبَّرَ النظمُ الكريم باسمِ الفاعل ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾؛ للدِّلالة بصيغتِهِ على اتِّصاف الوجوهِ بالضّاحكة حالاً واستقبالاً، ممّا يُفيدَ دوامَ الاتصافِ وثبوتَهُ واستمرارَهُ. وللدِّلالة بمادَّته على انبساطِ الوجه وظهورِ شيءٍ من

(1) البيضاوي، انوار التنزيل: 5/ 288.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 105.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 139.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 62.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 105.

الأسنانِ فرَحاً وابتهاجاً بما نالَهُ من كرَمٍ وأمانٍ وفَوز، فهي: "مَسرورةٌ فرحةٌ لما عَلِموا من الفوزِ والسَّعادة، أوْ لفراغِهم من الحسابِ بالوجهِ اليَسير، والضّحك: هو انبساطُ الوجهِ وتكشُّرُ الأسنانِ من سُرور النفس، ولظهورِ الأسنانَ عندَهُ سُمّيت مقدّمةُ الأسنان (ضواحِكَ)، ويُستعملُ في السُّرور المجرَّد كما في الآية"[1].

دلالةُ الكنايةِ في ﴿ضَاحِكَةٌ﴾:

الـضّـحِـكُ من الفارّ جزاءٌ مُخزٍ للكُفّار

كنّى النظمُ الكريم بلفظ اسمِ الفاعل ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ﴾؛ للدِّلالة على السُّرورِ[2] والبَهجة والفرحَ بالفوزِ المُبين معَ جَوازِ إرادةِ المَعنى الحقيقي، إذ من لوازمِ الضّحك في يومٍ يفِرُّ المرءُ من أخيه الفوزُ والسّرورُ والكرامةُ والحُبور، وإنَّما ذكرَ الضّحك في مقابلةِ أولئك الأشرارِ الذينَ كانوا من المؤمنينَ يَضحكون؛ ليصوّرَ بهجتهُم وضحكَهم يومَ يفرُّ الأشرار من أقاربِهم وأهليهم.

دلالةُ الوَصفِ باسمِ الفاعِل ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾:

المُـبـالـغـةُ بـالاسـتـبـشـار مُناسِبةٌ للفَوزِ بدارِ القَرار

عبّرَ النظم الكريمُ باسمِ الفاعل ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾؛ للدِّلالة بصيغتِهِ على الاتّصاف بالبِشْر والسّرور اتّصافاً ثابتاً ومُستمرًّا ودائماً؛ وليدلَّ بمادّتِه على حُصولِ السُّرور لتلك الوُجوه حُصولاً مُبالغاً فيه. قالَ ابنُ عاشور: "وَ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ مَعْناهُ فرِحَةٌ، والسّينُ والتّاءُ فيهِ لِلْمُبالَغَةِ مِثْلَ: اسْتَجابَ، ويُقالُ: بَشَرَ، أيْ فرِحَ وسُرَّ، قالَ تَعالَى: ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ [يوسُف: 19] أيْ يا فرْحَتي. وذهبَ البِقاعيُّ إلى أنَّها للطّلَب، أي طالبةٌ للبشر، وهو تغيُّرُ البشَرة إلى السُّرور بعدَ أنْ كانتِ الوجوهُ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 139.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 137.

المؤمنةُ في تغيُّرٍ وشُحوبٍ من خشيةِ اللّه تعالى[1]، وبناءً على هذا يكونُ الطّلبُ مَجازيًّا؛ لأنّ البِشْر لا يُطلَبُ منه إلاّ بعدَ ارتكابِ الاستعارةِ المكنيّة، وهو وجهٌ بعيد، والصّوابُ أنّها صيغةٌ لازمةٌ دالّةٌ على السُّرورِ والتوقُّعِ لنَيْلِ الخيرِ بعدَ البَعث؛ لتحقُّق ما صدَّقت به ووقوعِهِ.

دلالةُ الإسنادِ المَجازيِّ في ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾:

إسنادُ الفعلِ للمحلِّ مبالغةً بالبِشْرِ الأجَلِّ

أسندَ النظمُ الكريم لفظَ ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ لضميرِ (الوجوه) في قوله تعالى: ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ إسناداً مَجازيًّا؛ "لأنَّ الوُجوهَ مَحَلُّ ظُهورِ الضَّحِكِ والاسْتِبْشارِ، فهوَ مِنْ إسْنادِ الفِعْلِ إلَى مَكانِهِ"[2]، قال المُظهري: "﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ وُصِفَت الوجوهُ بصفةِ أصحابِها مَجازًا"[3].

دلالةُ الكنايةِ في ﴿وُجُوهٌ﴾:

حُصولُ السُّرورِ والجَمالِ بطريقِ البُرهانِ والاستِدلال

كنَّى النظمُ القرآنيُّ بلفظ (الوُجوه) في قولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ عن (الذّوات)، قالَ ابن عاشور: "وَلَكَ أنْ تَجْعَلَ (الوُجوهَ) كِنايَةً عَنِ (الذَّواتِ)؛ كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرَّحمَن: 27]؛ إذ يلزمُ من الوجوهِ أصحابُها، وحينئذٍ يكونُ إثباتُ الجمال والسُّرورِ بطريق البرهان والاستدلال؛ إذ يُصبحُ إثباتُ الإسفار والضَّحك والاستبشار للوجهِ بمَثابةِ الدَّليل على ثبوتِهِ لأصحابها، ويلزمُ منه إسنادُ الأخبارِ الثلاثة إلى ضميرِ الذّوات إسناداً حقيقيًّا، والذي يبدو أنَّه توجيهٌ بعيدٌ؛ لأنَّ الغرضَ بيانُ عظيمِ جمالِهم وفرحِهم حتى إنَّ وجوهَهم صارَتْ ذاتَ إسفارٍ وضحكٍ وبِشْرٍ.

نكتةُ الجمعِ بينَ (الضّحك والاستبشار):

جمعَ النظمُ الكريم بينَ (الضّحك والاستبشار) في قولِهِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 272.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 138.
(3) التفسير المظهري: 10/ 203.

تعالى: ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾؛ إمّا للدِّلالة على أنَّ الضّحكَ للوُجوه وأصحابِها يتعلّقُ بالجانبِ الحسيِّ الظّاهر للنّاظِرين، وأنَّ الاستبشارَ لها ولأصحابِها يتعلَّقُ بالجانبِ المعنويِّ، الّذي يُضفي على الوجوهِ ارتياحاً وسُروراً؛ فالضّحك يُنبئ عن سُرورٍ قلبيٍّ ظاهريّ، والاستبشارُ يُنبئ عن بهجةٍ قلبيّةٍ معنويَّة، وقيل: ضاحكةٌ من مسرَّة العين، مُستبشِرة من مسرَّة القلب[1]. ولا يبعُدُ أنْ يكونَ الضَّحك من هؤلاءِ الَّذين هم في شَقاء، والاستبشارُ إحساسٌ بنزولِ الخيرِ بها والعَفْو عنها والإكرامِ لها، كما يمكنُ أنْ يكونَ الاستبشار تقييداً للضَّحك وبياناً له[2]، فالخبرانِ حينئذٍ بمعنى خبرٍ واحدٍ؛ بأنّه ضحكٌ يفيضُ بالسُّرور والبهجة، وليس مجرّدَ ضحكٍ لا يُضفي جَمالاً على الوجهِ وارتياحًا.

البِشْرُ والسُّرور يَليقُ بالمؤمنينَ يومَ النُّشور

نكتةُ تعدُّدِ الأخبارِ:

أخبرَ النظمُ الكريم عن (الوجوه) بثلاثةِ أخبار في قولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾؛ لإضفاءِ الجمالِ والسّرور والشُّعور بالكرمِ الإلهيِّ العظيم عليها، إذِ الخبرُ الأوّل أنبأ عن جمالِهم وضيائِهم وأنوارِهم البهيَّة، والثاني أخبرَ عن سُرورهم الظّاهر للعيان، والثالث أفادَ استشعارَهم بالفوزِ بدارِ الكرامةِ والبَقاء.

الأنوارُ البهيَّة والسَّعادةُ القلبيّة لأصحابِ الأعمالِ السّنيَّة

دلالةُ تقديمِ أوصافِ المؤمنينَ على أوصاف الكافِرين:

قدّمَ النظمُ الكريم أوصافَ المُؤمنين في قولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ على أوصافِ الكافرينَ في قولِه تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾، في حين عكسَ ذلك في (سورةِ النّازعات)، وعلّلَ ذلك ابنُ عاشور بقولِه: "وَقُدِّمَ هُنا ذِكْرُ وُجوهِ أهْلِ النَّعيمِ عَلَى وُجوهِ

مِن اللّائق بأهلِ الشّرَف تقديمُهُم على أهلِ الهَوان والأسَف

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 139.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 139.

أَهْلِ الجَحيم خِلافَ قَوْلِه في سورَةِ النّازِعات: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧﴾ [النازعات: 37]، ثُمَّ قَوْلِه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [النازعات: 40] إلَى آخِرِه؛ لِأَنَّ هَذِهِ السّورَةَ أُقيمَتْ عَلَى عِمادِ التَّنْويهِ بِشَأْنِ رَجُلٍ مِنْ أفاضِلِ المُؤْمِنينَ، والتَّحْقيرِ لِشَأْنِ عَظيمٍ مِنْ صَناديدِ المُشْرِكينَ، فكانَ حَظُّ الفَريقَيْنِ مَقْصودًا مَسوقًا إلَيْهِ الكَلامُ، وكانَ حَظُّ المُؤْمِنينَ هوَ المُلْتَفَتَ إلَيْهِ ابْتِداءً، وذَلِكَ من قَوْلِه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ إلَى آخِرِه، ثُمَّ قَوْلِه: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾. وأمّا سورَةُ النّازِعاتِ فقَدْ بُنِيَتْ عَلَى تَهْديدِ المُنْكِرينَ لِلْبَعْثِ ابْتِداءً مِنْ قَوْلِه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾ [النازعات: 6 - 8]؛ فكانَ السّياقُ لِلتَّهْديدِ والوَعيدِ وتَهْويلِ ما يَلْقَوْنَهُ يَوْمَ الحَشْرِ، وأمّا ذِكْرُ حَظِّ المُؤْمِنينَ يَوْمَئِذٍ فقَدْ دَعا إلَى ذِكْرِهِ الاسْتِطْرادُ عَلَى عادَةِ القُرْآنِ مِنْ تَعْقيبِ التَّرْهيبِ بالتَّرْغيبِ"[1].

دلالةُ (الواو) في ﴿وَوُجُوهٌ﴾ والغرض منها:

عطفَ النظمُ الكريمُ بـ(الواو) قولَه تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ على ما قبلَها؛ استكمالاً لجوابِ الشَّرط ببيانِ حالِ أهلِ الصِّنف الثاني مِن الكُفّار والفُجّار بعدَ بيانِ حالِ أهلِ الإيمان والأعمالِ الصّالحة يومَ يفِرُّ المرءُ من أخيه، والجامعُ بين المتعاطفين التّضادُّ[2]؛ فالاقترانُ بينهُما خياليٌّ، وظيفتُهُ مزيدُ الإنذارِ والتهديد للمُخاطَبين بما يؤولُ إليه أمرُهُم في ذلك اليومِ المَهول.

العطفُ على الجوابِ لبيانِ حالِ أهلِ العَذاب

نكتةُ الابتداءِ بالنّكرة ﴿وَوُجُوهٌ﴾:

نكّرَ النظمُ الكريم لفظَ (الوُجوه) في قولِه تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا﴾؛ للدِّلالة على النوعيَّة؛ فهي وجوهٌ لنوعٍ آخَرَ يختلفُ عن النوعِ المتقدِّم في حالِه ومَآلِه؛ لاختلافِهما في الدُّنيا صورةً ومعنىً؛ كما

الإبهامُ والتنكير دالٌّ على التّشويقِ المُثير

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 137.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 105.

أفادَ التنكيرُ إبهاماً وإجمالاً، يشوِّقُ السّامع لمعرفةِ أصحابِ تلك الوجوهِ الَّتي كانت أحوالُها قاتمةً، ممّا يؤدّي لمزيدِ الإصغاءِ والانتباه.

دلالةُ (وُجوه) على المَجاز المُرسَل أوِ الكِناية:

الـحُـزْنُ والمَـرارة حـــالُ أهـــلِ الخَسارة

عبّرَ النظمُ الكريم بلفظِ (وُجوه) في قولِه تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾؛ إمّا للدِّلالة بطريقِ المَجاز المرسَل على أصحابِها؛ من ذكرِ الجُزء وإرادةِ الكُل؛ إذ الحزنُ والهمُّ والغَبَرة والكُدورة تظهرُ على الوجوهِ البائنة من أصحابِها، أوْ للدّلالة بطريق الكنايةِ على الذَّوات مع احتمالِ إرادةِ المعنى الأصليِّ، وعلى كلا الاحتمالين فإنَّ المغبرَّ أصحابُ تلك الوجوه، لكن ذُكِرَ (الوجهُ) لمزيدِ الاهتمامِ بقُبحِهم وكُدورتهم وحُزنِهم الظّاهر على مُحيّاهم.

نكتةُ تكرار الظرف (يوم) مضافاً:

في يـومِ الـفِـرار يتميَّزُ منَ الحُزنِ أهلُ النّار

كرّرَ النظمُ الكريمُ لفظَ (يوم) في قولِه تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا﴾؛ للدِّلالة على الاهتمامِ بذكرِ حالِ الفريقَين في ذلك اليوم، وأنَّ ذلك اليومَ يشتملُ على أمورٍ مُتضادّة في الأحوالِ للمُنشَرينَ؛ إذ فريقٌ منهم في سُرورٍ وحُبور، وفريقٌ آخرُ في غمٍّ ودُحور؛ ممّا يدلُّ على أنَّ يومَ الفرار مختصٌّ بالكفّار والفُجّار؛ الذينَ انشغَلوا خوفاً وهولاً بشؤونِهم عن أقاربِهم المقرَّبين، كما أفادَ تكرارُ الظّرفِ ربطَ الجوابِ بالشَّرط، حتى استغنى بإعادتِه عن (الفاء) الرّابطة.

سرُّ التعبيرِ بـ(على) والغرضُ منها:

استعلاءُ القُبحِ والإظـــلام على أعـــداءِ ديـــنِ الإسلام

عبّرَ النظمُ الكريم بحرفِ الجرِّ (على) في قولِه تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾؛ إمّا للدّلالة على الاستعلاءِ الحقيقيِّ إنْ كانتِ الغَبَرة بالمعنى الحقيقيِّ، ممّا يفيد استقرارَ الغبارِ على تلك الوجوهِ استقرارَ المُستعلي على المُستعلى عليه، وكأنَّ الوجوه صارتْ مكاناً للغُبار من شدّةِ ذلك الفرارِ والهُروب من أقربِ المُقرَّبين. أوْ للدِّلالة على الاستعلاءِ المجازيِّ إن كانت الغَبَرة بمعنى القُبْح والإظلامِ

والخوفِ والحُزن، قال القونوي: "وهذا أبلغُ مِن (مُغبرّة)؛ لأنَّه يفيدُ استعلاءَ الغُبارِ عليها بحَيْثُ لا يحيطُ الكَلامُ ببيانِهِ"[1].

سرُّ التعبير بالجملةِ الاسميَّة ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾:

المقصودُ من ذكرِ الفريقين الإنذارُ لأهلِ الكُفر من المُخاطبين

عبّرَ النظم الكريمُ بالجملةِ الاسميّةِ ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ الواقعةِ خبراً عن المُبتدأ (الوجوه) في قولِهِ تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾؛ للدّلالة بها على ثبوتِ ذلك الحُكم ثُبوتاً دائماً ومُلازماً، وهذا أبلغُ من الإخبارِ بالمُفرد (مُغبرَة) في مُقابلةِ ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ من قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾؛ إذ الجملةُ تشتملُ على الحكمِ بخلافِ المفردِ الدالِّ على مجرّدِ الوَصف، فيكونُ المقصودُ من ذكرِ حالِ الفريقينِ التهديدُ والإنذارُ للكفّار من المُخاطبين، وجاءَ ذكرُ حالِ المؤمنين تقويةً لذلك الانذار، حتّى يَشعُروا بعظيمِ الخيبة والحِرمان أنْ لم يكونوا في صفِّ أهلِ الإيمان.

دلالةُ لفظِ ﴿غَبَرَةٌ﴾ بين الحقيقةِ والكنايةِ:

العُـدولُ عن المَلزوم للمُبالغةِ بشـدَّةِ الأحـزانِ والهُموم

عبّرَ النظمُ الكريم بلفظِ ﴿غَبَرَةٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾: للدِّلالة بها إمّا على المعنى الحقيقيِّ، وهو الغبارُ الّذي امتلأتْ به وجوهُهُم حتّى صارَ لونُها غباراً داكناً، وذلك يتناسَبُ مع الفرارِ من الأقاربِ بالمعنى الحقيقيِّ؛ إذ الهروبُ المتزايدُ بين أهل الكُفران يؤدّي إلى إثارةِ الأتربةِ والغبار حتَّى يغدو لونُ وجوههم غُباراً قاتماً ودكنةً مُظلمة. وإما للدِّلالة على المعنى الكنائيّ وهو الهمُّ والحُزن والقُبح والإظلام، أو: "المذلّةُ والهوان"[2]؛ إذ يلزمُ من الغبَرة دلالاتُ الهمِّ والحزنِ الداخليِّ والقبحِ والإظلامِ الحسيّ، فيكون مُقابلاً للفظِ ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ من قولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾؛ لأنَّ الإسفارَ هو الجمالُ والاستنارةُ والضّياء، فيكون مدلولُ ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ القبحَ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 105.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1796.

والإظلامَ والدّكنة نتيجةَ الهمِّ والحُزن؛ فيكونُ كنايةً عن ذلك من قبيل ذكرِ اللّازم وإرادةِ الملزوم؛ مُبالغة في شدّةِ حُزنهم الذي جعلَ وجوهَهُم مُظلمةً كئيبةً داكِنةً، قال القونوي: "والظّاهرُ أنَّ الغبرةَ كنايةٌ عن ظهورِ كمالِ الحُزن فيها، وإليه أشارَ بقوله: (وكدور)، ولا يبعدُ أنْ يرادَ بها المَعْنَى الحقيقيّ"[1].

دلالةُ التنكيرِ في ﴿غَبَرَةٌ﴾:

الـغُـبـارُ والـذُّلُّ الأشـــدّان لـكـلِّ كافرٍ ذي بُهتان

نكَّر النظمُ الكريم لفظَ ﴿غَبَرَةٌ﴾ مع تحريكِ (الباءِ) فيها بالفتح في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾؛ للدِّلالة على شدّة الغُبار وكثرتِهِ وعظمتِهِ وفَخامتِهِ، قال ابن عاشور: "والغَبَرَةُ بفَتْحَتَيْنِ الغُبارُ كُلُّهُ، والمُرادُ هُنا أنَّها مُعَفَّرَةٌ بالغُبارِ إهانَةً ومِنْ أثَرِ الكَبَواتِ"[2]؛ وذلك لشدّة بَلواهم وعظيمِ أحزانِهم، ولذا قدّمَ الخبرَ ﴿عَلَيْهَا﴾؛ ليتأتَّى التنكيرُ الدالُّ على دكنةٍ قاتمةٍ وهمٍّ كبيرٍ ومذلّةٍ عظيمةٍ في ذلك اليوم.

دلالةُ الطِّباق في ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾، و﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾:

الـوُجـوهُ المُؤمنة ذاتُ إسـفـار، والوجوهُ الكافرةُ ذاتُ غُبار

عبّرَ النظمُ الكريم بأسلوبِ الطِّباق في قولِهِ تعالى: ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ لوصفِ وُجوهِ الكُفّار بالدُّكنةِ القاتمة، والإظلامِ الظّاهر الَّذي منعَ مِن ظهورِ النّور في وجوهِهم، وحجبَ ضياءَها وإشراقَها، بخلاف أنوارِ المُؤمنينَ المُتلألئةِ التي تشعُّ في وجوهِهم المُسفرة في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾، والغرضُ من الطِّباق بيانُ التفاوت العظيم لتلك الوجوهِ استنارةً وإظلاماً، وجمالاً وقُبحاً، وأمناً وخَوْفاً، وعِزّةً ومذلّةً، ممّا يُضفي درساً بليغاً للمُخاطبين المُنذَرين بالعودةِ سريعاً إلى صنفِ الفائزين، والدخولِ في زُمرة عبادِ اللّه الصّالحين.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 105، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 272.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 138.

دلالةُ التعبيرِ بالفعلِ ﴿تَرْهَقُهَا﴾ مادّةً وصيغةً:

الهُمومُ المُرهِقة أحزانٌ مُستمرّة دائِبة

عبّر النظمُ الكريمُ بالفعلِ المُضارع (تَرهَقُ) في قولِه تعالى: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾؛ للدِّلالة بصيغتِه على الاستمرارِ التجدُّدي لذلك الّذي يَغشاها وينزلُ بها ويَعلوها حتى أصابَها بالرّهق، فلولا تجدُّدُ الأحزانِ واستمرارُ الهموم لما وصلَتْ إلى ذلك الرّهَق المُستمرِّ المُتجدِّد. وللدِّلالة بمادّته على نزولِ أمرٍ وغَشَيان همٍّ، فقوله ﴿تَرْهَقُهَا﴾: "أي: تدركها عَنْ قُرْبٍ، كَقَوْلِكَ رَهِقْتُ الجَبَلَ إذا لَحِقْتَهُ بسُرْعَةٍ، والرَّهَقُ عَجَلَةُ الهَلاكِ"[1]، لكنّه غَشَيانٌ ونزولٌ يؤدّي إلى الإرهاقِ والتعَبِ مع المذلّةِ والهوان والقهر، ولذا قال البِقاعيُّ: "﴿تَرْهَقُهَا﴾ أي تَغشاها وتقهَرُها وتَعلوها"[2]، حتى إنَّه يقال: (أرهقَني هذا الأمرُ) أي لمّا غَشيني وعلاني الكربُ أتعبَني وأهمّني وأوصلَني إلى حالةِ التعبِ المُرهِقِ الّذي لا يخلو من ضعفٍ ومَهانة، ولذا عدلَ النظمُ عن (تَغشاهُم أوْ تعلوهُم قترة).

دلالةُ الإخبارِ بالجملةِ الفعليَّة ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾:

ثبوتُ الكُفران وتجدُّدُ الفُجور شأنُ أهلِ الخُسرانِ والثُّبور

أخبرَ النظمُ الكريم عن (الوجوه) بخبرَين، أوّلُهما جملةٌ اسميّةٌ ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ وثانيهما جملة فعليَّة: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾؛ للدِّلالة على أنَّ الإظلامَ والقبحَ وعدمَ الإشراق بالأنوار ثابتٌ على سبيلِ الاستمرارِ والدّوام لا ينفكُّ عنها، وأمّا الشّعورُ بالرهَق وغشيانُ القَتَر فإنَّه يتجدّدُ وينقطِعُ على سبيل الاستمرارِ؛ فيكونُ اختيارُ الجملةِ الاسميّة مُناسِباً لكُفرِهم المستمرِّ باللّه تعالى استمراراً دائميًّا ثابتاً، واختيارُ الجملةِ الفعليَّة مُناسِباً لفُجورهم المتجدِّدِ على سبيلِ الاستمرارِ لكنّه يظهَرُ مُتقطِّعاً؛ إذ الكفرُ اعتقادٌ غيرُ مُفارقٍ، بخلافِ الفُجور وأعمالِه المُتقطِّعة، فيكون

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 62.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 272.

التوصيفُ بـ﴿عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ﴾ مُرتبِطاً بلقبِ ﴿ٱلۡكَفَرَةُ﴾، و﴿تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ مُرتبِطاً بلقبِ ﴿ٱلۡفَجَرَةُ﴾.

سرُّ اختيارِ التعبيرِ بلفظ ﴿قَتَرَةٌ﴾:

بـينَ الـدُّخـانِ الأسودِ والضّيقِ النّفسيّ يُعاني أهـلُ الـفُـجـورِ والمَعاصي

عبّرَ النظمُ الكريم بلفظِ ﴿قَتَرَةٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾؛ للدِّلالة بها - كما يرى جمهورُ المفسِّرينَ - على لونٍ يُشبِهُ الدُّخانَ الأسودَ نتيجةَ الحزنِ والكربِ والغمِّ[1]، قال ابن عاشور: "والقَتَرَةُ: بفَتْحَتَيْنِ شِبْهُ دُخانٍ يَغْشَى الوَجْهَ مِنَ الكَرْبِ والغَمِّ، كَذا قالَ الرّاغِبُ، وهوَ غَيْرُ الغَبَرَةِ كَما تَقْتَضيهِ الآيَةُ؛ لِئَلّا يَكونَ مِنَ الإعادَةِ، وهيَ خِلافُ الأصْلِ ولا داعيَ إلَيْها، وسَوَّى بَيْنَهُما الجَوْهَريُّ وتَبِعَهُ ابْنُ مَنْظورٍ وصاحِبُ القاموسِ"[2]. وبذلك تكونُ (القتَرة) لوناً يجتمِعُ مع لونِ الغَبَرة، مع أنَّ المناسبَ في مقابلةِ قوله: ﴿ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾، وقوله ﴿ٱلۡفَجَرَةُ﴾ أنْ تكونَ (القترة) بمعنى الضّيق النفسيّ وعدمِ انبساطِ أساريرِ الوَجه؛ إذ (القترُ والتقتير والقُتور) يدلُّ على الضّيق وعدم البَسْط، فتكون وجوهُهُم كالحة ونفوسُهم ضيِّقة غيرَ مُنبسِطة، بخلافِ وجوهِ المؤمنينَ الضّاحكة المُستبشرة المُنبسِطة والمُنشرِحة. كما أنَّ المناسبَ للفُجور أنْ تكونَ ضيّقة ومُتعَبة، فكما كانتِ (الغَبَرة) مناسبةً للكُفر بتغطيةِ الأنوارِ الإيمانيّة فغُطّيَتْ وجوهُهم بحِجابٍ داكنٍ؛ فإنَّ القتَرة والضّيق النفسيَّ الّذي ارتسمَ على وجوههم فبدا عليهم الرّهَق مناسبٌ للفجورِ المُصيبِ لهم بالرّهَق والتّعب. قال المصطفوي: "كما أنّ (القتور) وهو التضيّقُ يُناسِبُ الفجور، وهو التّمايُلُ عنِ الحقّ، فإنّ الإنسانَ كلّما مالَ عنِ الحقّ والنّور فقد وقعَ في مضيقِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 706، والهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 140.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 138.

الظُّلمة والقُتور، ويدلّ على هذا المَعنى مقابلتُها بآية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ أي مُضيئة"[1].

دلالةُ الطِّباق:

الـطِّـبـاقُ في الكلام دالٌّ على التجوُّزِ في المَرام

أتى النظمُ الكريمُ بأسلوبِ (الطّباق) في قوله تعالى: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ المُقابِلِ تقابلَ التضادِّ مع قوله: ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾؛ إذ وصفُ الوجوهِ بالضّيق وعدمِ الانبساط الدالّ على الغمِّ والكرْبِ الشّديد يقابلُ وصفَ الوجوهِ بالضّحك والاستبشارِ والانبساطِ بفضل الله ورحمتِهِ، وفي ذلك الجمعِ بينَ الحالتينِ المُتضادّتينِ قرينةٌ على أنّ المجازَ في (الغَبَرة) أرجحُ من الحقيقة، وأنَّ ضَحِكَ الوجوهِ كنايةً عن السّرور أرجحُ من الضَّحك الحقيقي، لكنْ لمّا كان السُّرور والحُزن والهمُّ والنّكَدُ والكربُ النفسيّ يظهرُ على الوجهِ ولونِهِ عبَّر النظم عن ذلك بأوصافٍ حسيّةٍ، والمرادُ بها دلالاتُها المجازيّة.

نكتةُ الفصلِ في ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾:

التوكيدُ لدلالةِ التبادُر، والاستئنافُ لدفعِ توهُّمِ المُكابِر

فصلَ النظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ عمّا قبلهُ؛ إمّا لتنزُّلِ الجملةِ فيهِ ممّا قبلَها منزلةَ التوكيد؛ إذ عُلِمَ من السّياق أنَّ هذه أوصافُ الكافرينَ، قال ابن عاشور: "وَهَذِهِ وُجوهُ أَهْلِ الكُفْرِ، يُعْلَمُ ذَلِكَ مِنْ سياقِ هَذا التَّنْوِيعِ، وقَدْ صُرِّحَ بذَلِكَ بقَوْلِهِ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ زيادَةً في تَشْهِيرِ حالِهِمُ الفَظِيعِ لِلسّامِعِينَ"[2]، وهذا هو المُتبادَرُ من ظاهرِ السّياق في أذهانِ المُؤمنين. أوْ للدلالةِ على الاستئنافِ البيانيِّ، المُفيدِ لدفعِ توهُّمِ أنَّ تلك الوجوهَ النيّرة هي وجوهُ المُكذِّبين بدعوةِ الإسلام، وأنَّ الوجوهَ الأخرى هي وجوهُ المُصدِّقين بدعوةِ الإسلام، إذ كانَ هؤلاءِ المُكذِّبون يزعمونَ أنَّهم إنْ بُعثوا ليكونَنَّ لهم الجزاءُ الأوفرُ عند الله، كما لهم

(1) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 7/ 201.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 138.

مِنَ النَّعيم في الدُّنيا، فنفى هذا التوهُّمَ؛ بأنَّ هذه الوجوهَ المظلمةَ الكالحة والنفوسَ الضيِّقةَ الحزينة هي وجوهُ الكفَرة والفَجَرة.

نكتةُ التعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبَعيد:

التهكُّم بالكافرين لاستخفافِهم بالدّينِ المُبين

عبّرَ النظمُ الكريم باسم الإشارةِ الموضوع للمحسوسِ الحاضرِ المُشاهَد في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾؛ للدِّلالة على تمييزِ حالِهم وتشخيصِ ذواتِهم بأوضَحِ مُميِّز ومُعرِّف وهو اسمُ الإشارة بحيثُ لا يُتوهّمُ أنَّهم غيرُهم ولا يتأتّى ذلك أصلاً؛ فكأنَّهم قد نُشِروا وبُعِثوا وأشارَ إليهم إشارةَ الحاضرِ المُخاطَبِ أمامَ الجميع.

وعبَّر باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموضوعِ للمُشارِ إليه البعيدِ؛ للدِّلالة على التهكُّم بهم؛ إذ يَعتقدونَ العظمةَ في نُفوسِهم ومَآلِهم؛ فخابَ ظنُّهم وسقطَ تصوُّرُهم، فأشارَ إليهم باسمِ الإشارةِ الموضوعِ للبعيد الدّالِّ على عظمةِ مَنزلتهم؛ للتهكُّم بهم والاستخفافِ بحالِهم الَّتي وصلوا إليها.

دلالةُ العُدولِ عن (تلك) إلى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

العَوْدُ بالتذكير دالٌّ على إرادةِ المَجاز الأصيل

عدلَ النظمُ الكريم عن اسمِ الإشارة (تلك) إلى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ مع أنَّ الأنسبَ في العَوْدِ على ما تقدَّمَ من ذكرِ (الوجوه) كونُ اسمِ الإشارة هو (تلك)؛ وذلك العدولُ للدِّلالة على مُراعاةِ الخبرِ المُذكَّر، وليكونَ قرينةً على أنَّ التعبيرَ بـ(الوجوه) فيما تقدّم أريدَ به أصحابُها، كما يدلُّ عليه صريحُ لفظَي: ﴿ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾.

سرُّ التعبيرِ بالضَّميرِ ﴿هُمُ﴾:

انحِصارُ المَذكور في الجامِعينَ بينَ الكُفرِ والفُجور

عبّرَ النظمُ الكريمُ بضميرِ الفصلِ ﴿هُمُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾؛ للدِّلالة على الحَصْر أوَّلاً، والتقوّي للحُكم ثانيًا؛ إذ انحصرَ وصْفا الكفرةِ الفجرةِ في أصحابِ وجوهِ أولئك المَنشورينَ دونَ غيرهم معَ تقويةِ الحُكمِ وتأكيدِهِ؛ نفياً لأيِّ

شكٍّ أوْ إنكار. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الفجرةَ بلا كُفْرٍ لا يجتمعُ فيه ذلك التوصيف، بل يكونونَ في ضيقٍ نفسيٍّ دونَ كُدرةٍ لونيَّة وحزنٍ عميق؛ لوجودِ شَرارةِ الإيمانِ في صُدُروهم، ولذا قال الهرري: "وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الفجور الغيرَ المُقارنِ بالكفر ليسَ في درجةِ المُقارنِ في المذموميَّة والسببيَّةِ للحَقارةِ والمَهانة والخِذلان، إذ أصلُ الفجور: الكذبُ والمَيلُ عن الحقِّ، ويُستعمَلُ في الذّنب الكبيرِ، وكثيرًا ما يقعُ ذلك من المؤمنِ العاصي"[1].

دلالةُ التعريفِ بـ(أل) في لفظَي ﴿ٱلۡكَفَرَةُ﴾ و﴿ٱلۡفَجَرَةُ﴾:

المُبالغونَ في الكُفْر والفُجور مَفضوحونَ يومَ النُّشور

عرّفَ النظمُ الكريم لفظَي ﴿ٱلۡكَفَرَةُ﴾ و﴿ٱلۡفَجَرَةُ﴾ بـ(أل) في قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾؛ للدِّلالة على الجنسِ المرادِ به تحقُّقُ الوَصفينِ في أولئك المذكورينَ بأحوالِهم وأشكالِهم وألوانِهم على سبيلِ الكمالِ في الاتّصاف والمبالغةِ، بحيث صارَ الكفر والفجورُ منهم طبعَينِ يتّسمونَ ويُعرفونَ بهما.

دلالةُ تعريفِ طَرَفَي الكلام:

انحصارُ الكُفر والفُجور فيمَن اعترَتْهُم الغَبَرةُ وغشيَهم القُتور

أوردَ النظمُ الكريمُ كلاًّ من المبتدأ والخبرِ مُعرّفاً في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾؛ فالمبتدأ معرّفٌ بالإشارةِ إلى مُعيَّن، والخبرانِ معرّفان بـ(أل) الدالّةِ على الحقيقتينِ المعلومتينِ في الذِّهن؛ وذلك للدِّلالة على الحَصْرِ والقصرِ لوصفَي (الكُفر والفُجور) في أصحابِ تلك الوجوهِ المُغبرَّة المُرهَقةِ بالقَتَرة.

دلالةُ العُدول إلى جمعِ التكسيرِ المذكور ﴿ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾:

لِتَوالي الحَركات في الصّيغة دلالةٌ على المُمارسَةِ الكثيفة

عدلَ النظمُ الكريمُ إلى جمعِ التّكسير ﴿ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾ بدلَ التعبيرِ بالجَمعِ السّالم (الكافرينَ والفاجرينَ) أوْ بالجمعِ المُكسَّر (الكُفّار الفُجّار)؛

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 31/ 140.

لتحقيقِ رعايةِ الفاصلةِ، وللدِّلالة على المُبالغةِ في الكُفر والفُجور مبالغةً شديدةً، دلَّ عليها توالي الحركاتِ في الصّيغةِ تواليا مُفيداً لكثرةِ المُمارسةِ والاتِّصاف بكلٍّ من الكُفرِ والفُجور حتَّى صاروا كَفَرةً فجَرةً.

دلالةُ تركِ العاطِفِ في ﴿ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾:

أعـلَى دَرَجـاتِ الشُّرور اجتِماعُ الكُفرِ بالفُجور

جمعَ النظمُ الكريمُ بينَ الخبرين بلا عطفٍ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾؛ للدِّلالة على "اجتماعِ الوَصفين في مَوْصوفٍ واحدٍ، أوِ التَّنْبيهِ على أنَّ كلَّ واحدةٍ منهما صفةٌ ذميمةٌ عَلَى حيالِها، يفيدُ كمالَ قُبحِ مَوْصوفها؛ فما ظنُّك في اجتماعِهما؟ وهذا هوَ الأوْلى؛ إذ الوجهُ الأوّلُ ثابتٌ في صورةِ العَطْف بـ(الواو)"[1]. والحاصل أنَّ تركَ العطفِ دلَّ على اجتماعِ الخبرين في مُخبَرٍ عنه واحدٍ، وأمّا إنِ انفردَ وصفُ (الفجور) كما في صورةِ المُؤمنِ العاصي فإنَّ ذلك مُؤذِنٌ بالضّيق وعدمِ السُّرور لخوفِهِ منِ انحرافِهِ عن الشَّرعِ الحَكيم.

دلالةُ تقديمِ ﴿ٱلۡكَفَرَةُ﴾ على ﴿ٱلۡفَجَرَةُ﴾:

أعـظَـمُ أنـواعِ الـفُـجـور الـكُفر بمَن بيدِهِ كافّةُ الأُمور

قدّم النظمُ الكريم الإخبارَ بـ﴿ٱلۡكَفَرَةُ﴾ على الإخبارِ بـ﴿ٱلۡفَجَرَةُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾؛ لشناعتِهِ[2]، وعظيمِ قُبحِهِ مقارنةً بالفُجور؛ إذ الكفرُ أعظمُ أنواعِ الجُرأةِ على اللّه تعالى، بخلافِ الفجورِ الَّذي هو ضعفٌ إنسانيٌّ إزاءَ تنفيذِ الأوامرِ وتركِ النَّواهي، من دونِ اعتداءٍ على الذاتِ الجليلةِ بالتكذيبِ والتّشكيك؛ إذ فجورُ المكذِّب يقومُ على جَحْدٍ باللّه تعالى أصلاً وبشريعتِهِ، وفجورُ المؤمنِ يقومُ على تصديقٍ باللّه تعالى وشريعتِهِ عندَ الإقدامِ على فُجوره، ولذا يشعرُ بالنّدمِ والخوفِ من اللّه تعالى.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 106.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 20/ 106.

سرُّ عدمِ الاكتفاءِ بـ﴿ٱلۡكَفَرَةُ﴾ عن ﴿ٱلۡفَجَرَةُ﴾:

التصدّي للجامعِ بينَ الكُفرِ والفُجور، والتلهّي عن الجامعِ بينَ التصديقِ والعمَلِ المبَرور

لم يكتفِ النظمُ القرآنيُّ الحكيمُ بوصفِ ﴿ٱلۡكَفَرَةُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾ معَ أنَّ الكفرَ أعظمُ من الفجورِ وأشنعُ، ومَن كان كافراً باللّه تعالى لا يُقبَلُ منه تنفيذٌ لشريعتِه، ولا يُقدِمُ على العمَلِ إيماناً؛ "لِما في مَعْنَى الفُجورِ مِنْ خَساسَةِ العَمَلِ، فذُكِرَ وصْفاهُمُ الدّالّانِ على مَجْموعِ فسادِ الاعْتِقادِ وفَسادِ العَمَلِ"[1]، وفي ذلك تعريضٌ بمَن تصدَّى له الرّسولُ الأكرمُ ﷺ من صناديد قريشٍ طمَعاً في إيمانِهم؛ فقد جمَعوا بين الكُفرِ والفُجور، ومَن تلهَّى عنه ممَّن كان جامعاً بينَ الإيمانِ والعمَلِ الصّالح، قال البقاعيّ: "فقد عادَ آخِرُها على أوّلِها فيمَن يستحقُّ الإعراضَ عنهُ ومَن يستحقُّ الإقبالَ عليهِ"[2].

سرّ الاكتفاءِ بتوصيفِ الوُجوهِ المُغبرة:

محطُّ التهديدِ والإنذارِ الوعيدُ للكُفّارِ والفُجّار

اكتفى النظمُ القرآنيُّ ببيانِ أصحابِ الوجوهِ المُغبرة في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾ دونَ بيانِ أصحابِ الوُجوه المُسفرة، وإنْ كان ذكرُ أوصافِ أصحابِ الوجوهِ المُغبرة بالكفرةِ والفجرة يستلزمُ أنْ يكونَ أصحابُ الوجوهِ المُسفرة مُتّصفةً بالإيمانِ والعمَلِ الصّالح، ولعلَّ ذكرَ أصحابِ النّوعِ الثاني؛ لأنَّهم محطُّ الإنذارِ والتهديد، فكان ذكرُهُم وتعيينُهُم أوفقَ بالنّظم ومَقصَدِه.

دلالةُ التعبيرِ بالوصفِ ﴿ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾:

تعليلُ اربدادِ الوُجوهِ بالكُفرِ والفُجورِ المكروه

أخبرَ النظمُ الكريم عن أصحابِ الوُجوهِ المُغبرة بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾؛ ليكونَ تعليلاً لاربدادِ وجوههم وتغيُّرِ أشكالِهم وضيقِ حالِهم مع شدّةِ خوفِهم وذُعرهم، بكُفرهم باللّه تعالى وفُجورِهم في حقوقِ العباد، فيكونُ من تعليقِ الحُكم بالمشتقِّ للدّلالة على علَّة مبدأِ الاشتقاقِ له.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 138.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 273.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفِرارُ والهُروب:

الفرارُ الحركةُ السّريعةُ مُدبِراً للتخلُّصِ عنِ ابتلاءٍ أوْ لانكشافِ ابتلاءٍ، في حين أنَّ الهروبَ مُطلَقُ الحركةِ السَّريعة، مِن مقصَدٍ أوْ إلى مَقصَدٍ[1]، ومِن ثمَّ عبّر النظمُ القرآنيُّ بـ(الفِرار) في قولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾؛ لأنَّ ذلك الفرارَ ناشئٌ عن انشغالٍ بأمرٍ عظيم، فهو يُدبِرُ عن أقاربِهِ للتخلُّصِ من ذلك الابتلاءِ والكَرب، بخلافِ (الهروبِ) الَّذي قد لا يكونُ دافعُهُ التخلّصَ من كربٍ وابتلاءٍ.

الـفِـرارُ أخـصُّ مُـطـلـقـاً مِـن الهُروب

الرّهَقُ والغَشيان:

رَهَقَهُ الدَّينُ غَشيَه، وأرهقْتُ الرّجلَ أمراً - يتعدّى إلى مفعولينِ - أعجَلْتُه وكلّفتُهُ حَمْلَهُ، وأرهقتُهُ بمعنى أعسَرتُهُ[2]، والرّهَقُ: جهلٌ في الإنسانِ وخِفّةٌ في عَقلِه، تقولُ: بِهِ رهَقٌ، قالَ: ورجلٌ مُرهَّقٌ موصوفٌ بالرّهَق[3]، والرهقُ في الاستعمالِ القرآنيِّ غَشيانٌ بما يُكرَهُ، لا مطلقُ الغَشيان[4]، والحاصلُ أنَّ الرّهقَ والإرهاقَ يدلُّ على حصولِ أمرٍ مَكروهٍ مَقرونٍ بالكُلفةِ والتّعب، بخلافِ (الغشيان) الّذي في أصلِهِ يدلُّ على التّغطية، فهو سترٌ حتّى يَستوليَ به ويحلَّ فيه[5]، وقد يكونُ مَصحوباً بالكراهةِ وعدَمِها، ومن ثمَّ عبّر النظمُ القرآنيُّ بالرهَق في موضعِ الكراهةِ للأمرِ النّازلِ في قولِهِ تعالى: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾، وعبّر بالأعمِّ في قولِه تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: 11].

الـرَّهَـقُ أخـصُّ مُـطـلـقـاً مـن الغَشَيان

(1) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 9/ 47.
(2) الفيومي، المصباح المنير: (رهق).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (رهق).
(4) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 4/ 236.
(5) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 7/ 238.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والستون،
سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والستون، سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 66 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-45-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 66 : المجلد السادس والستون، سورة النَّازعَات من الآية 27 إلى سورة الأعْلى الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-45-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6448894 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"